تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

الحَيُّ: الدائم الحياة بلا زوال.

القَيُّومُ: الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظهم.

وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ: ما فرق به بين الحق والباطل.

وَالله عَزِيزٌ: غالب قوي، منيع الجانب.

إن خالق هذا الكون ومالكه ليس بإلهٍ آلي أو ميكانيكي، بل إله فعال لما يريد، ولقد بعث بهدايته إلى الإنسان في كل العصور، في صورة كتبٍ أنزلت على الأنبياء السابقين مثل التوراة والإنجيل، غير أن الإنسان ما فتئ يحوّل دين الله الواحد إلى أديانٍ عديدةٍ متباينةٍ؛ من جراء تحريفه كلام الله عن مواضعه، وتحميله إياه من ضروب المعاني والمدلولات ما لا يحتمل، إلى أن أنزل الله جل شأنه الكتاب الأخير - وهو القرآن الكريم - مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فهو كتاب الهدي والتوجيه الصحيح للإنسان من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر هو ((الفرقان)) أو ((المعيار الثابت)) الذي يمكن به التفريق بين الحق والباطل؛ فالقرآن يدل دلالةً واضحةً على الدين الحق؛ كما يكشف القناع عن الدين الزائف الذي اصطنعه الناس من عند أنفسهم على أساسٍ من التفسيرات المزعومة والتأويلات الفاسدة،

إذن فإن الذين لا يؤمنون بكتاب الله ، أو لا يتخلون عن الدين الباطل القائم على آرائهم وتفسيراتهم المزعومة، يستحقون عند الله عذاباً شديداً ، إن هؤلاء أناس وهبهم الله تعالى أعيناً، ولكنهم لا يُبصرون بها، كما منحهم الله تعالى عقولاً ولكنهم لا يفقهون بها ، برغم ظهور الدليل أمامهم في أسطع صوره ، فلم يرضوا بالخضوع والاستسلام الفعلي للحق، من أجل كبريائهم.

ليس هنالك أحدٌ غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يُعرّف بماهية الذات الإلهية وصفاتها، ولا أن يحدد نوعية ما بين الذات الإلهية وبين المخلوقات الأخرى من علاقاتٍ وروابط على الوجه الصحيح ولقد أوضح الله جل شأنه، كل هذه الأمور، في كتابه العزيز، بصورةٍ جليةٍ ، كما أن قضية تعيين كتاب هديٍ وتوجيهٍ قويمٍ للإنسان ليست بأقل خطورةً من القضية السابقة .

والموقف الوحيد الصحيح للإنسان هو الذي يكون منسجماً مع بقية العوالم الأخرى في هذا الكون ، وإن من يجهل حقيقة الإنسان ، وما يمر به من مراحل وأطوار شتى في مسيرة حياته، من يوم ميلاده إلى حين وفاته ، والذي يجهل كذلك ماذا جرى قبل أن تتم ولادته، وماذا سيجري بعد موته ؟ إن من يجهل كل ذلك لا يمكنه أبداً - بطبيعة الحال - أن يقرر المنهج العملي الصحيح للإنسان الذي يتبعه في الحياة الدنيا ، ومن المستحيل أن يكون هناك أحد على علمٍ مستوعب لهذه الحقائق - المنظورة وغير المنظورة - كلها، غير الذات الإلهية وحدها ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، إذن فمن مقتضى الواقعية أن يعتمد الإنسان في هذا الشأن على الله تبارك وتعالى وحده، وعليه أن يأخذ الهداية من رسل الله إليه بكل ثقةٍ وقوةٍ ويقينٍ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ

إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ
النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ: واضحات لا احتمال فيها ولا اشتباه .

أُمُّ الْكِتَابِ: أصله يرد إليها غيرها.

مُتَشَابِهَاتٌ: خفيات أستأثر الله بعلمها ، أولا تتضح إلا بنظر دقيق

زَيْغٌ: ميل وانحراف عن الحق.

تَأْوِيلِهِ: تفسيره بما يوافق أهواءهم .

لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا: لا تُملها عن الحق والهدى .

كَدَأْبِ: كعادة وشأن .

محتويات القرآن قسمان : أولهما ما يتعلق بدنيا الإنسان ، مثل : الوقائع التاريخية، والآيات الكونية، والأحكام المتصلة بالحياة الدنيوية، وما إلى ذلك .

وأما القسم الثاني: فهو ما يتعلق بأمور الغيب، والتي لا سبيل الى معرفتها إلا عن طريق الوحي مثل : الصفات الإلهية، وأحوال الجنة والجحيم .. إلخ.

وقد اتخذ القرآن أسلوباً محكماً ومباشراً، لبيان القسم الأول، أما القسم الثاني.. فاللغة البشرية غير قادرةٍ على تصويره أو تصويرها على بيانها أو تصديرها على وجهٍ صحيح ؛ لذا فقد تم عرض قضاياه بشكلٍ متشابهٍ، أي بأسلوب التمثيل والتشبيه ؛ فإذا قيل مثلاً ((يد الإنسان)) فهذا مثال اللغة المباشرة وإذا قيل ((يد الله)) فهو مثال اللغة التمثيلية ، والذين لا يَعُون هذا الفرق، يقعون في الحيرة والضلال، ذاك لأن ماهية ((يد الإنسان)) يمكن فهمها على وجه التحديد ، غير أنه لا يمكننا أن نفهم ماهية ((يد الله)) على وجه التحديد كذلك، بواسطة عقولنا القاصرة .

إن الموقف العلمي والعقلي الصحيح من ((المشابهات)) هو أن يعترف المرء بقصوره ومحدوديته وأن يقتنع بالتصوّر الإجمالي عن تلك الأمور التي لا يتمكن من إدراكها ضبطاً بواسطة حواسه

المحدودة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

وَبِئْسَ المِهَادُ: بئس الفراش ، والمضجع جهنم .

لَعِبْرَةً: لعظة ودلالة.

عندما تقوم دعوة الحق ، يحتدم الصراع بين بيئة الوقت القابضة على الإمكانات والوسائل المادية بكل أنواعها وبين موكب الحق الذي لا يملك من الوسائل المادية ما يمكنه من حسم الصراع لصالحه في هذه الظروف والأوضاع يغدو التقدم نحو الحق مرادفاً للانقطاع عن البيئة والحرمان من المنافع والمكاسب ، الأمر الذي يدفع المرء دفعاً نحو إنكار الحق حرصاً على مصالحه الذاتية، ويجعله بالتالي يمتنع عن الانضواء الفعلي تحت راية الداعي، بعد أن يقطع صلته بأصدقائه وذوي قرابته.

غير أن هذه الأشياء التي تفرض نفسها الإنسان اليوم، لن تغني عنه يوم الحساب فتيلاً؛ إذ إن قيمة هذه الأشياء إنما تدوم ما دام الأمر بين الإنسان والإنسان، وأما إذا دارت دائرة القيامة وصار الأمر حينئذٍ بين الإنسان وبين الله رب العالمين، فإذا بهذه الأشياء كلها تفقد قيمتها تماماً .

إن الداعي يبدو في ظاهر الأمر مغلوباً على أمره في هذه الدنيا ، ولكنه هو الغالب في واقع الأمر ؛ لأن الله عز وجل يقف إلى جانبه ، وبالمقابل يبدو المنكر في ظاهر أمره غالباً، غير أنه ضعيف، غاية الضعف، ذاك لأن كل ما يملكه من قوةٍ وبأسٍ ليس سوى مظهرٍ وقتي خادعٍ.

إن معركة بدر الكبرى، التي وقعت في السنة الرابعة عشرة من النبوة، كانت أنموذجاً دنيوياً للمشهد الذي سوف يُعرض في اليوم الآخر ، حيث كان عدد منكري الحق في هذه المعركة وقوتهم العسكرية أكثر بكثيرٍ من عدد المؤمنين بالحق وقوتهم، وبالرغم من ذلك لقى المنكرون هزيمةً غير عاديةٍ، في حين ظفر أتباع الحق بانتصارٍ حاسمٍ ، وهذا برهان جلي على أن الله جل شأنه يقف دائماً إلى جانب أتباع الحق، فإن انتصاراً غير عاديٍ كهذا برغم ما كان هناك من بونٍ شاسعٍ بين الطائفتين، من حيث العَدد والعُدة لا يمكن أن يقع بدون نصرٍ من الله وتأييده وهو في الوقت نفسه مؤشر ظاهري يدل على مدى ضعف المنكرين للحق، وما يعانونه من حالة الضياع وعدم الاستقرار في أرض الله هذه.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

حُبُّ الشَّهَوَاتِ: المشتهيات بالطبع .

الْمُقَنطَرَةِ: المضاعفة أو المحكمة المحصنة.

الْمُسَوَّمَةِ: المُعَلمَة أو المطهمة الحسان .

وَالأَنْعَامِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

وَالْحَرْثِ: المزروعات .

حُسْنُ المَآبِ: المرجع الحسن

وَالْقَانِتِينَ: المطيعين الخاضعين لله تعالى .

بِالأَسْحَارِ: في أواخر الليل إلى طلوع الفجر .

الدنيا مكان ابتلاءٍ واختبارٍ وفتنة ؛ حتى يمكن التمييز بين صنفين من بني البشر: مَن يقع فريسة الافتتان بالجاذبية الظاهرية الخلابة؛ فيندفع وراء أشياء الدنيا؛ وينغمس في لذاتها، ومن يتسامى بروحه ويربأ بنفسه عن ذلك، متطلعاً إلى أشياء الآخرة غير المرئية، فيتخذ منها مركزاً لتوجهاته وطموحاته .

يجد المرء نوعًا من السكينة والطمأنينة في اقتناء أشياء الدنيا؛ إذ هو ينظر فيرى أن هذه الأشياء تمثل دعائم يقوم عليها بها نفوذه الشخصي في مجتمعه، وأنه بها يتمكن من تحقيق كل أمانيه ورغباته، كما يستطيع أيضاً أن يكسب بذلك جنداً من الأعوان والأنصار يكونون دائماً رهن إشارته.

وتلك هي العقبة الكبرى في سبيل التقدم نحو مطالب الآخرة، والقيام بأعبائها ، فإن إحساس المرء الزائد بأهمية الدنيا يجعله يغفل أو يتغافل عن الآخرة ، فهو ينهمك في بناء مستقبل أولاده في الدنيا، لدرجة أنه لا يكاد يذكر أن هناك ((مستقبلاً آخر)) فيما وراء هذه الدنيا، ينبغي له أن يحسب لبنائه ألف حسابٍ، ويبلغ حبه وشغفه بتعمير بيته في الدنيا مبلغاً، لا يدور معه بخلده مرةً أن هناك ((بيتاً آخر)) سواه، يجب عليه أن يُعنى بتعميره حق العناية ، على أن هذه الأشياء بكل أنواعها وألوانها لا تعدو أن تكون مجرد رونقٍ للحياة الحاضرة المؤقتة ، وأنها لن تغني عن أحدٍ فتيلاً في الحياة القادمة الأبقى والأوسع مدىً .

وكيف تكون الحياة، تلك التي يمارسها إنسانٌ قد اتخذ من الحياة الأخروية الدائمة مركزاً لتوجهاته وطموحاته؟! سوف تفقد مباهج الدنيا وزخارفها كل قيمها في نظره، ويمتلئ قلبه باليقين القائل بأن أمر الآخرة كله بيد الله تعالى وحده ، مما يجعله أخشى الناس لله، ولا يعالج أمور الحياة وقضاياها المشتركة وفق ما تهوى نفسه، بل سيتخذ موقفه العملي نحوها آخذاً محكمة الله العادلة بعين الاعتبار ، ولن يُوجد أي تناقضٍ بين قوله وفعله ، ولا يبقى ماله ملكاً له، إنما يصير وقفاً لله جل شأنه ولن يزال مستقيماً صامداً؛ لا ينحرف ولا يتزحزح، في وجه الشدائد والصعوبات؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لن يجد أحداً – غير الله – يلجأ إليه، فيما لو

تخلى عن الله وهرب منه؛ إذ لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه ، وسوف يذوب قلبه في أعماق صدره من ذكر الله عز وجل، فيدعوه ويبتهل إليه تعالى باندفاع وحرقة بالغتين ، وستصبح وحداته وخلواته عامرةً بصحبة الله ومناجاته ، وينظر إلى وجوده فيرى أن ملء إهابه الخطأ والخطيئة والعيب، بالمقارنة إلى عظمة الله القدوس وكماله، إذن فلن يسعه عند ذلك سوى أن يتضرع إلى الله قائلاً : ((يا إلهي ! اغفر لي ذنوبي - بفضلك ورحمتك)) .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قَائِماً بِالْقِسْط : مقيما للعدل في كل أمر.

الدِّينَ: الطاعة والانقياد لله ، أو الملة .

الإِسْلامُ: الإقرار بالتوحيد مع التصديق والعمل بشريعته تعالى .

بَغْياً: حسدا وطلبا للرياسة.

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله : أخلصت نفسي وعبادتي لله .

وَالأُمِّيِّينَ: مشركي العرب .

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت أعمالهم وخلت عن ثمراتها .

إله الكون إله واحد لا غير ، وهو يحب العدل والقسط ، وقد جاءت كل الكتب السماوية - في صورها الأصلية السليمة من تحريف البشر - معلنةً مؤكدةً هذا الأمر، وهذا الكون المترامي الأطراف، الذي يسيّره مالكه ويدبر شئونه، ما زال ولا يزال على ما ينبغي أن يكون عليه من جميع النواحي ، إن هذا الكون طبقاً لمعطيات العلم الإنساني المقطوع بصحتها، نظام وحدَويّ أو وَحْدَانيّ إلى أقصى حدٍ، مما يدل على أن مدبر الكون واحد لا غير ، ووضع كل جزءٍ من أجزاء الكون في موضعه المناسب له، يُثبت أن خالقه إله محب للعدل والنصفة، وليس محباً للظلم والفوضى .

كل جزءٍ من أجزاء الكون ((مسلم)) على وجهٍ أكمل ما يكون؛ يعني أنه يتحرك ويؤدي وظيفته وفقاً لإرادة الله، وهذا الموقف العملي بعينه مطلوب من الإنسان كذلك يجب على الإنسان أن يعرف الله ربه،ويصوغ حياته طبقاً للمنهج الذي قرره الله سبحانه وتعالى والقرآن يدعو إلى هذا الإسلام الصادق، وليس السبب في إنكار المنكرين لهذه الدعوة القرآنية، أنهم لم يقتنعوا بعدُ بكونها دعوةً حقة إنما السبب في ذلك يرجع إلى العناد، حيث إن الإيمان بها يبدو لهؤلاء مرادفاً للاعتراف بتفوق داعي القرآن الفكري، في حين أن مشاعر الحسد والكبرياء المستكنة في طوايا نفوسهم، لا تسمح لهم بهذا النوع من الاعتراف، ولذا فبدلاً من أن يتقدموا للإيمان بالحق، يحاولون أن يخنقوا الحناجر التي يرتفع منها صوت الحق غير أن ذلك مستحيل في دنيا الله ؛ إذ إن كل ما يبيتونه للقضاء على شخصية الداعي إلى الحق. أو إخماد صوته، سيبوء بالإخفاق والفشل لا محالةَ ، وعندما تُوضع موازين عدل الله فسوف يرون بأم أعينهم مدى تفاهة أعمالهم وعدم جدواها، كانوا متأكدين من نجاتهم وسعادتهم على أساسٍ منها .

إن الدليل الصادق آية الله جل شأنه، وإن الشخص الذي لا يخضع للدليل، فكأنما يمتنع عن الخضوع لله، وسوف يُبعث أمثال هؤلاء الناس يوم القيامة، بحيث لا يكون لهم هنالك من ناصرٍ ولا معينٍ.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

وَغَرَّهُمْ: خدعهم وأطمعهم في غير مطمع .

يَفْتَرُونَ: يكذبون على الله .

تُولِجُ: تدخل.

بِغَيْرِ حِسَابٍ: بلا نهاية لما تعطي أو بتوسعة .

ما زال الهدي الإلهي هدياً واحداً؛ وإن اختلفت صوره على ألسنة الأنبياء وفي الكتب المنزلة.، ومن أجل هذا التشابه أو المماثلة، لم يَعُدْ من الصعب على العارفين بالكتب السماوية والمؤمنين بها، أن يتبيّنوا مبلغ الدعوة القرآنية من الصدق والصحة ، وإن كان هنالك من فارق مميز لدعوة القرآن من التعاليم السماوية السابقة، فإنما ينحصر ذلك في أن الدعوة القرآنية تتناول الدين الإلهي بتطهيره من كل الشوائب والتحريفات البشرية، فما السبب إذاً في وقوف الكثيرين من الناس من الدعوة القرآنية موقف الجحود والإنكار ؟! إن السبب وراء ذلك راجع إلى أنهم لا يأخذون دعوة القرآن بمأخذٍ جدي؛ لأنها ليست في نظرهم شيئاً ذا بالٍ يستحق الاهتمام، كما أنهم لا يعدون إنكارهم لها مما يُعرض سعادتهم في الدنيا، أو نجاتهم في الآخرة للخطر ، ذاك لظنهم القائل بأنهم في مأمنٍ من نار جهنم؛ لا يُصْلَوْنها مطلقاً، وإن مسّتْهم لفحاتها فلمدةٍ من الزمن يسيرةٍ للغاية ، غير أنه إذا ما أُقيمت موازين عدل الله جل جلاله، فسوف يعلمون أنهم إنما ظلوا هائمين في ظلام الأحلام اللذيذة، والأماني العِذاب، ليس غير.

كل أنواع العزة والقوة بيد الله تبارك وتعالى ، ولو شاء الله لأصدر قرار العزة والرفعة في

حق من يُعَدّ تافهاً غير ذي شأنٍ بين العظماء والمعاصرين له ، وهكذا لو شاء الله لفجّر ينابيع العلم والمعرفة بواسطة من أفتى من المتربعين على مقاعد العلم والمشيخة بجهله، وإن أَوْلى الناس بالعزة والقوة عند الله هو الذي كان يعدهما ملكاً خالصاً لله وحده، وأبعد الناس عن الاستحقاق لهما عند الله هو من يظن أنهما ملك يمينه.

ومن روائع القدرة الإلهية المطلقة العظيمة، ما نشاهده كل يوم ، حيث يغطي - سبحانه وتعالى - النور بأرديةٍ من الظلام، ثم يجعل النور يخترق أردية الظلام الكثيفة السوداء الملقاة عليه ، كما أنه تعالى يخلق الحياة من عناصر ميتةٍ ويحول الأشياء الحية إلى عناصر ميتةٍ، إذاً فما الذي يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب، فيما لو عملت قدرة الله المطلقة هذه عملها في التاريخ الإنساني، كما هي تعمل على نطاقٍ واسعٍ جداً، في هذا الكون الفسيح المترامي إلى ما لا نهاية ؟ إن الذين يستغلون عنوان الحق لإحراز منافع دنيويةٍ بطرقٍ باطلةٍ، دائماً ما يُصبحون معارضين معاندين للدعوة الصادقة إلى الحق الخالص النقي ، وإن القائم بمثل هذه الدعوة، يلقى بأيدي أولئك المتاجرين بالحق، من شديد العذاب، وألوان الأذى الحسي والمعنوي ما لا يُوصف، إنه يُخرج من داره، ويُنفى من وطنه، وتُحطّم إمكانياته الاقتصادية تحطيماً... إلخ ، غير أن داعياً كهذا يكون في حماية الله وتحت رعايته المباشرة ؛ لأنه تعالى يهيئ له أسباباً للرزق غير اعتياديةٍ ، فإذا كان الآخرون يُعطوْن من الرزق بمقدار سعيهم واجتهادهم في طلبه، فإن شخصاً كهذا يُرزق من عنده سبحانه وتعالى بغير حساب.

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى
ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا
بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ

وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

أَوْلِيَاءَ: بطانة أودّاء وأعوانا وأنصارا .

تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً: تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه.

وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ: يخوفكم الله غضبه وعقابه .

مُحْضَراً: مشاهدا لها في صحف الأعمال .

المؤمن هو الذي يُعامل بني البشر أجمع معاملةً واحدةً، وهي المعاملة القائمة على مبدأ العدل والمعروف، دون أن يفرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم، بيد أن صداقة غير المسلمين وولاءهم، سيصبح محرماً على المسلم، في حالة ما إذا كان ذلك على حساب الصالح العام للأمة المسلمة .

وأما لو اضطر أحد المسلمين، أو أحد الأحزاب الإسلامية، إلى إقامة علاقات وقتيةٍ بغير المسلمين، كتدبيرٍ وقائي لابد منه، للدفاع عن النفس أو المال أو غيرهما ، فذلك مما لا بأس به، فإن الله ينظر إلى النية، فإذا كانت النية صالحةً، فلا أحد يُؤاخَذ على ما يباشره من عملٍ من هذا القبيل.

إن الله لا يخفى عليه شيء مما يصدر عن الإنسان من قولٍ أو فعلٍ سواء أكان يأتيه سراً أم علانيةً ، وإنه حين يُرفع ستار الامتحان والابتلاء، ويتجلى بالتالي عالم الآخرة، فسيرى المرء عندئذٍ حصائد أعماله كلها بعَيْنَيْ رأسه، ويكون هذا المشهد هائلاً ومروّعاً لدرجة أنه يودّ لو أن جميع الأشياء التي كانت مُتعة نفسه في الحياة الدنيا،صارت بعيدةً عنه غاية البعد!وهيهات!! الموطن الذي يريد الله جل شأنه أن يتحقق فيه إسلام أحد الناس، هو ((القلب))، وإنما المؤمن هو الذي تكون صلته بالله قد بلغت مبلغ المحبة القلبية ، وأمثال هؤلاء المحبين لله، هم الذين يستحقون أن يتفضل الله عليهم بحبه إياهم، وتوجيه عناياته الخصوصية نحوهم .

كما أن الشخص الذي يقيم صلته بالله على هذا النحو، يقابله الله تبارك تعالى بالعفو عن كل ما قد يقع فيه من خطإٍ أو تقصيرٍ، إن الله جل جلاله أشد ما يكون أخذاً وعقاباً بالنسبة للطغاة والمستكبرين، غير أن الذين يسلكون مسلك التواضع والاستكانة، فإن الله بأمثال

هؤلاء أرأف وأرحم ما يكون .

إن محبة الله التي ليس من شأنها أن تدفع صاحبها إلى قطع علاقته القلبية بأعداء الله، أو لا تبعثه على الطاعة والامتثال لأوامر الله، إنما هي محبة كاذبة ، وسوف يُدرج مثل هذا الشخص عند الله في عداد المنكرين، وليس في عداد المؤمنين .

الرسول هو الإنسان الذي قد شهد الله بأنه على درجةٍ أكمل وأعلى ما يكون من العبودية الخالصة لله، ومن ثم فإن الله سبحانه قد جعل الرسول الأسوة الحسنة المعتد بها عند المسلمين لممارسة حياة العبودية الإلهية في هذه الدنيا.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣
ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ
إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥
فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ
كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ
٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ
عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ
مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا
رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ
مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ
وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ
ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ
كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ

ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَآلَ عِمْرَانَ: عيسى وأمه مريم بنت عمران.

مُحَرَّرًا: عتيقا مفرغا لعبادتك وخدمة بيت المقدس.

أُعِيذُهَا بِكَ: أجيرها بحفظك وأحصنها بك .

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا: جعله كافلا لها وضامنا لصالحها .

الِمحْرَابَ: غرفة عبادتها في بيت المقدس .

أَنَّى لَكِ هَذَا: كيف أو من أين لك هذا .

بِغَيْرِ حِسَابٍ: بلا نهاية لما يعطي.

بِكَلِمَةٍ: بعيسى - خُلِقَ بِكُنْ بلا أب .

وَحَصُوراً: لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن تعففا وزهدا .

أَنَّى يَكُونُ: كيف أو من أين يكون ؟

آيَةً: علامة على حمل زوجتي.

أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ: أن تعجز عن تكليمهم بغير آفة .

إِلاَّ رَمْزاً: إلا إيماء وإشارة .

وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ : صل من الزوال إلى الغروب .

وَالإِبْكَارِ: من طلوع الفجر إلى الضحى .

اقْنُتِي: أخلصي العبادة وأديمي الطاعة .

يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ: يطرحون سهامهم للاقتراع بها .

لقد وهب الله سيدنا زكريا عليه السلام الولد في سن شيخوخته، وأوصل رزقه إلى مريم عليها السلام في حجرتها التي انزوت فيها تتعبد لله ، وخلق سيدنا عيسى المسيح عليه السلام بدون أبٍ، كما خلق في عشيرة إبراهيم عليه السلام وذوي قرباه جماعةٍ من الصالحين، هذا، ولم يكن إنعام الله على عباده هؤلاء بهذه الهبات والمنن الجليلة على نحوٍ عشوائيٍ أو اعتباطيٍ، بل إنما أنعم عليهم بذلك كله، نظراً لمؤهلاتٍ وخصائص علياً؛ جعلتهم مستحقين لهذا الإنعام الإلهي بجدارةٍ ؛ لأنهم لم يعلقوا آمالاً وتوقعاتٍ عريضةً على أولادهم من الناحية الدنيوية ، بل كانت سعادتهم في أن يوجه أولادهم أقصى طاقاتهم في سبيل الله وحده ، وغاية مناهم أن تبقى ذريتهم مصونةً من شر الشيطان الرجيم ، وأن تُضَمّ بالتالي إلى زمرة الأتقياء والصالحين من عباد الله .

إنهم لم يقعوا فريسة الحقد والحسد، فيما إذا رأوا أحداً من الناس يتمتع بأي نوعٍ من الفضل والامتياز اختصه الله به دون من عداه ، نتيجةً لصفاء نفسه، ونقاء عواطفه، كانت ذريتهم طيبةً نقيةً؛ تمتلك قدرة فائقةً على ضبط النفس وكبح جماحها في مواجهة شدائد الحياة الدنيا ومُغرياتها ، وتذكر الله ذكراً كثيراً، وتختار طريق الخير والرشد، وهؤلاء هم الذين يُطعمهم الله ويسقيهم من خزائن رزقه الخاصة، ويتقبلهم بقبولٍ حسنٍ، فيهب لهم من لَدُنْه رحمةً ونعمةً .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ
وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم
مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ
ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا

تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ: بقول (كُنْ) مبتدإٍ من الله .

وَجِيهاً: ذا جاه وقدر وشرف .

فِي الْمَهْدِ: في مقره زمن رضاعه قبل أوان الكلام .

وَكَهْلاً: حال اكتمال قوته (بعد نزوله) .

قَضَى أَمْراً: أراد شيئا . أو حكمه وحتمه .

الْكِتَابَ: الخط باليد كأحسن ما يكون .

وَالْحِكْمَةَ: الفقه والصواب قولا وعمــلا .

أَخْلُقُ لَكُم: أصور وأقدر لرد إنكاركم .

وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ: أُخَلِّص الأعمى من العمى

وَمَا تَدَّخِرُونَ: ما تخبئونه للأكل فيها بعد .

كان الله قد اختار اليهود للاضطلاع بمهمةٍ خاصةٍ وهي : أن يُنزل عليهم هدايته؛ حتى يسيروا في طريق الله المستقيم، ويُرشدوا الآخرين أيضاً إلى معالمه، غير أن اليهود لم يلبثوا أن تفشى بينهم الفساد في القرون المتأخرة ، وبلغوا من الانحطاط مبلغاً، لم يعودوا معه أهلاً عند الله لكي يكونوا أمناء على الهداية السماوية ؛ ولذا فقد قرر الله عز وجل أن ينتزع هذه الأمانة من أيديهم، ويفوّضها إلى بني إسماعيل – الفرع الثاني من آل إبراهيم – وقبل التنفيذ الفعلي لهذا القرار الحاسم، كان لابد من إتمام الحجة على اليهود، وقد بُعث سيدنا المسيح عليه السلام من أجل تحقيق هذا الغرض بالذات، ولم تكن ولادته – عليه السلام – من غير أبٍ، وما قد أُجري على يدَيْه من المعجزات، وخوارق

العادات الأخرى، إلا لكيلا يبقى أمام اليهود مجال لشك في أنه نبي مرسل من عند الله ومبلّغ عنه تعالى ، وليس بناطقٍ عن هوى نفسه ، ولم يكن سيدنا المسيح عليه السلام يحمل معه آياتٍ خارقةً للعادة فحسب، بل كان – مع ذلك – يتحدث إلى الناس بأسلوبٍ قوي مؤثرٍ وبليغٍ لدرجة أنه لم يكن هناك أحد من معاصريه يقدر على التحدث بمثله ، وعندما تحدث عليه السلام لأول مرةٍ في هيكل أورشليم بُهت كل علماء اليهود الذين استمعوا إلى كلامه إذ ذاك، وأعجبوا به أيما إعجابٍ (انظر : إنجيل لوقا: الإصحاح الثاني: ٤٨).

ولا أدل على مدى تأثير شخصيته المعجزة، وكلامه الرائع المدهش، مِن أنه، رغم كونه ولد من غير أبٍ، لم يصادف أحدَ معاصريه يتجرأ على الطعن في شخصه من هذه الناحية – أي من ناحية النسب –، غير أن اليهود كانوا قد بلغوا من الطغيان والتمرد على الله منتهاه، وكانت قلوبهم قد قست وتحجرت لدرجة أنهم رفضوا أن يؤمنوا به، بالرغم من ظهور دلائل ساطعةٍ وآياتٍ واضحةٍ على صدقه وصحة رسالته – عليه الصلاة والسلام .

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩ ﴾ أنه بالرغم من كون البرهان الذي يتم عرضه عليهم ، كاملاً وجلياً في حد ذاته، غير أنه لا يكون مُقْنعا إلا لمن كان يتمتع بروح الاعتراف والإيمان، والذي يستطيع أن يرتفع بنفسه إلى ما فوق ضباب أفكاره القاتم، حتى يتأمل الدليل المقدم عليه بذهنٍ صافٍ ونقيٍ، والذي تكون فطرته سليمةً حيةً إلى حد ألا تقف معه قضية الحفاظ على المركز الاجتماعي أو الاعتبار الذاتي حجر عثرةٍ دون قبوله للحق.

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأٓيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

أَحَسَّ: علم بلا شبهة .

الحَوَارِيُّونَ: أصدقاء عيسى وخواصه وأنصاره.

وَمَكَرُوا: أي الكفار فدبروا اغتياله .

وَمَكَرَ اللهُ: دبر تدبيرا محكما أبطل مكرهم .

مُتَوَفِّيكَ: آخذك وافيا بروحك وبدنك .

لقد رفض كبار بني إسرائيل وسادتهم أن يعترفوا برسالة سيدنا المسيح عليه السلام، وبما أن كبار العصر أمثالهم يمتلكون عادةً كل أنواع الوسائل والإمكانات المادية، كما أنهم يكونون ممثلين للدين عند عامة الناس، نظراً لاحتلالهم المناصب الدينية المتوارثة، فإن رفضهم لأحدٍ لا يجعله محروماً من أسباب المعيشة فحسب، بل يجعله كذلك ساقط الاعتبار من الناحية الدينية عند الناس، بالرغم من تضحيته في سبيل الحق بكل ما يملك من رخيصٍ وغالٍ ، إن الوقوف مع الداعي إلى الحق ومناصرته في مثل هذا الموضع أمر غاية في الصعوبة؛ لأنه يعني الشهادة على صدقه في وجه أعاصير من الشكوك والمعارضات، والوقوفَ إلى جانب الحق في وقتٍ قد يبقى الحق فيه وحيداً مخذولاً ، وعندما يظهر الحق في صورته النقية الخالصة من كل شوبٍ، فإن وطأته تبلغ من الشدة أقصاها على جميع أولئك الذين كانوا من ذي قبل، قد حصلوا على سمعةٍ ومكانةٍ عند الناس، من خلال إلصاق رقعة الحق على حياتهم الزائفة المناقضة للحق، وإذا بهم يقومون ويقعدون للنيل من الداعي وتشويه سمعته ، ويثيرون بالتالي عاصفةً هو جاء من الشكوك والشبهاتِ حوله، لاستفزاز الجماهير وتحريك مشاعرهم ضده، ثم هم يدبرون آخر الأمر خطةً جائرة للقضاء عليه باستخدام وسائل العنف والقوة ، غير أن نصر

الله جل شأنه يكون دائماً مع الداعي، ولذا فإن أية معارضةٍ لا تنجح أبداً في إخماد صوته، وإن الداعي يقوم بإنجاز مسيرته، رغم كل المعاكسات ومحاولات القضاء على دعوته .

إن الذين يتخذون جبهة المعارضة بإزاء الحق إنما هم المفسدون عند الله تعالى؛ ذاك لأنهم يصدون الناس عن السير في الطريق المؤدي بهم إلى الجنة ، وإنه ليس هنالك من فساد أكبر من أن يُصد عباد الله عن التقدم نحو جنة الله .

على أن سيدنا المسيح عليه السلام وُلد في الشعب اليهودي، غير أن اليهود لم يؤمنوا بنبوته، بل افتروا عليه قضيةً مزورةً، بغية الإجهاز عليه، ورفعوها إلى المحكمة الرومية بفلسطين، وقد أصدرت المحكمة الحكم بإعدامه صلباً ، ولكن الله تعالى رفعه إلى السماء، وقد صلب الضباط الروميون رجلاً آخر مكانه لكونه شبيهاً به عليه السلام ، وبالنظر إلى جريمة اليهود الشنيعة هذه، فقد قرر الله عز وجل أن يكون الشعب المؤمن بالمسيح عليه السلام غالباً على الشعب اليهودي إلى يوم القيامة ، ويُلاحظ أن قرار الله هذا، إنما يتعلق بالوضع الدنيوي لكلا الشَعْبَيْن : اليهودي والمسيحي، وأما وضعهما أو مصيرهما في الآخرة، فإنه له شأناً آخر؛ إذ يتم تحديده وفق سنة الله العامة .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ
وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

مَثَلَ عِيسَىٰ: حاله وصفته العجيبة .

الْمُمْتَرِينَ: الشاكين في أنه الحق .

تَعَالَوْا: هلموا ، أقبلوا بالعزم والرأي .

نَبْتَهِلْ: ندعُ باللعنة على الكاذب منا .

يعتقد المسيحيون أن سيدنا عيسى ﷺ ابن الله، إنهم يقولون : إن المسيح ﷺ يختلف شأنه عن شأن البشر العاديين كل الاختلاف؛ فكانت ولادته من غير أبٍ، خلافاً لقاعدة التوالد والتناسل العامة، إذن فكيف يصح القول بأنه إنسان عادى كغيره من بني البشر، في حين أن أسلوب ولادته يقوم بحد ذاته دليلا على أنه كان ما وراء البشر، وأنه لذلك لم يكن ابناً لإنسانٍ، بل كان ابناً لله.

وقد قيل لهم: إن واقع خلق الإنسان الأول - أي آدم ﷺ- يتضمن جواباً شافياً عن سؤالكم المطروح حول ميلاد المسيح ، فمما لا جدال فيه أن آدم هو أول بشرٍ، وأنه لم يكن قد ظهر إلى الوجود من خلال اتصالٍ كائنٍ بين ذكرٍ وأنثى، طبقاً للعادة المألوفة الجارية، بل خُلق بأمرٍ من الله على نحوٍ مباشرٍ، فإذا لم يكن آدم ابن الله، بناءً على كونه وُلد من غير أبٍ، إذاً فكيف سيغدو المسيح ابن الله لمجرد كونه وُلد من غير أبٍ كذلك ؟!

في عهد نزول القرآن الكريم، كانت مدينة نجران (باليمن) مركزاً كبيراً للديانة النصرانية وفى سنة تسعٍ من الهجرة النبوية، قدم المدينة وفد نصارى نجران؛وقد ضم أحبارهم وزعماءهم الدينيين، لكي يتناقشوا مع رسول الله ﷺ حول العقائد النصرانية ، ولقد قدّم ﷺ أمامهم دلائل شتى، منها أنه قال : كيف يمكن أن يكون المسيح ابن الله، في حين أن الله حى لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟! وبالرغم من كونهم غير قادرين على إبطال ما عرض ﷺ عليهم من الدلائل، إلا أنهم لم يبرحوا يناقشونه بلجاجةٍ وعنادٍ بالغين ، ولما رأى ﷺ أنهم قد بلغوا من العناد والتمادي في الباطل إلى حدٍ لم ينفع معهم دليل ولا برهان ، عند ذلك طالبهم آخر الأمر متحدياً، بأن استَعِدُّوا للمباهلة فيما إذا كنتم تزعمون أنكم على الحق؟ !

ولما أصبح رسول الله ﷺ ، خرج مستصحباً معه كلا سِبْطَيْهِ : الحسن والحسين، وفاطمة - ابنته - تمشي عند ظهره، ومن ورائها عليّ - رضى الله عنهم-، وما إن رأى نصارى نجران هذا المنظر حتى ذُعِروا ذُعْراً شديداً، وطلبوا إليه أن يُمهلهم حتى ينظروا في أمرهم ، ويتشاوروا فيما بينهم، وعندما خلا بعضهم إلى بعضٍ للاستشارة، فإذا بأحد أحبارهم يتوجه إليهم قائلاً : لقد علمتم ما وعد الله إبراهيم، في ذرية إسماعيل من النبوة، فغير مُستبْعِدٍ أن يكون هذا الرجل هو ذاك النبي، ثم إنه ما لاعن قوم نبيًا قط، فبقي كبيرهم، أو نبت صغيرهم، وإنه

لَلإستئْصال منكم إن فعلتم ، فإني والله لأرى وجوهاً لو أنهم دعوا الله، لأزاح لهم الجبال الرواسي عن أماكنها ، ولذا فالأجدر بنا أن نصالح هذا الرجل، وننصرف عائدين إلى منازلنا .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾
هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم
بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا
نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى
ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ
ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

كَلِمَةٍ سَوَاءٍ: كلام عدل أو لا تختلف فيه الشرائع.

كَانَ حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

مُّسْلِماً: موحدا ، أو منقادا لله مطيعا.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ: ناصرهم ومجازيهم بالحسنى .

تَلْبِسُونَ: تخلطون أو تسترون .

ليس التوحيد جوهر تعاليم الأنبياء هو حقيقة، بل هو حقيقةٌ ثابتةٌ، حتى في نسخ التوراة

والإنجيل المتداولة اليوم، برغم أنها محرفة وغير موثوقٍ بصحتها ، فلو قيس الأمر بهذا الميزان المتفَق عليه بين الجميع؛ لثبت أن الإسلام هو وحده الدين الحق على الوجه الأكمل، وليس الديانتَيْن : اليهودية والنصرانية .

ومعنى التوحيد هو الإقرار بوحدانية الله، وإفراده تعالى بالعبادة، دون أن يُشرك بعبادته أحد سواه ، وألا يُرفع إنسان - أي إنسانٍ - إلى مقام الألوهية الذي لا يليق إلا بمالك الكون العظيم، إن هذا التوحيد محفوظ بصورته الخالصة النقية في القرآن والإسلام وحدهما، وأما أتباع الأديان الأخرى، فإنهم مع إقرارهم النظري بعقيدة التوحيد؛ كانوا قد اختاروا عملياً كل ما هو مناقض تمام المناقضة لحقيقة التوحيد؛ فبالرغم من الشهادة اللسانية بكون الله رب العالمين، فإنهم لم يلبثوا أن اتخذوا أنبياءهم وكبراءهم أرباباً من دون الله تبارك وتعالى .

كان مشركو مكة يزعمون أنهم على الديانة الإبراهيمية؛ كما كان اليهود والنصارى هم الآخرون يربطون تاريخهم الديني بسيدنا إبراهيم عليه السلام ، وهكذا جرت عادة الناس على امتداد العصور، بأن يستغلوا أسماء أنبيائهم وصلحائهم لترويج ما أحدثوا في دين الله من بدع، وما أدخلوا فيه من أباطيل وتحريفاتٍ ، وبعد ردحٍ من الزمن ترى الجهلة والعوام من الناس، وقد استحوذت على أذهانهم هذه الديانة المصطنعة لدرجة أنهم يعدونها هي الدين الأصيل ، وفي مثل هذه الظروف والملابسات، عندما تقوم دعوة الدين الحق والخالص من كل شوبٍ، يُخيَّل إلى معارضيه أن أقصر طريقٍ لإسقاط اعتباره عند العوامّ، وصرفهم عن اتباعه، هو أن يدعوا أنه مناقض لدين السلف، فإذا بالشخص الذي يكون ممثلاً حقيقياً لدين ((السلف)) يُقابَل بالرفض والإنكار باسم السلف أيضاً .

وهذا تلبيس الحق بالباطل، وهو يعني أن يُنشر من الأباطيل والأفكار الزائفة، ما لا يستند إلى أي أساسٍ في حقيقة الأمر، غير أن عامة الناس لا يلبثون بدورهم أن يحسبوها صحيحةً، لضعف مداركهم وعدم تمكنهم من التمحيص والتحليل ، وبالتالي تكون الفجوة بينهم وبين الحق الأصيل قد اتسعت إلى أقصى الحدود .

((المسلم الحنيف)) هو الذي يسلك طريق التوحيد بصدقٍ وإخلاصٍ ، والمسلم غير الحنيف هو الذي ينحرف عن ذلك مما يؤدي بالناس آخر الأمر إلى أن يُقبلوا على جوانب هامشيةٍ من الدين على أنها هي الدين كله، وأن ينطلقوا في السبُل المعوجة هنا وهناك،

منصرفين عن جادة التوحيد المستقيمة .

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

عَلَيْهِ قَائِماً: ملازما له تطالبه وتقاضيه.

فِي الأُمِّيِّنَ: فيما أصبنا من أموال العرب.

سَبِيلٌ: عتاب وذم أو إثم وحرج .

إن طائفةً وُلد فيها الأنبياء والصالحون، وبقى الدين يُذكر بينها، ويدور على ألسنة أفرادها لزمنٍ طويلٍ، طالما تقع في سوء فهمٍ قائلٍ بأنها هي والحق سيان ، وتكون نظرتها إلى الهداية على أنها شيء طائفي وليس بشيءٍ مبدئي ، وهكذا كان أمر اليهود ، فقد استقر في أذهانهم؛ نتيجةً لتقاليد تاريخيةٍ عريقةٍ، أن من ينتمي إلى طائفتهم على الهدى، وأما الخارج عن طائفتهم فإنه لا يمت إلى الهدى بصلةٍ .

والذين يعدون الحق أمراً طائفياً على هذا النحو، لا يستعدون لقبول الصدق الذي يظهر في غير طائفتهم، إنهم ينسون - أو يتناسون - أن الحق هو ما يأتي من عند الله تعالى، وليس ما يُتوارث عن شخصٍ أو طائفةٍ، ومع أنهم يهتفون باسم الدين الإلهي، غير أن دينهم عبارةً عن

الولاء الطائفي دون العبودية لله ، وإن نزعتهم هذه تُلقي على أعينهم أغشيةً سوداء قاتمةً ، تمنعهم عن النظر إلى فضل أحدٍ ينتمي إلى غير طائفتهم ، فلا يزالون يشكون فيه رغم ظهور دلائل قاطعةٍ على صدقه، ولا يلبثون أن يعارضوا دعوة الحق، القائمة في وسطٍ غير وسطهم الطائفي، معارضةً أعنف ما يكون، ويحاولون الإجهاز عليها باتخاذ موقفٍ مزدوجٍ نحوها، كما يحاولون تشكيك الناس في صحتها عن طريق نشر الأباطيل والشبهات حولها ، وعلى خلاف ما تدعو إليه الشريعة الإلهية، فقد يستحلون لأنفسهم أن يتخذوا مقياسَيْن متباينَيْن للسلوك : يقيسون بأحدهما الآخرين، وبالآخر أفراد طائفتهم ، إن اصطفاء أحد من الناس لتمثيل دين الله رحمة إلهية خاصة ، لا تُمنح بناءً على أساس الانتماء إلى طائفةٍ دون طائفةٍ، إنما يختص الله برحمته من أحب من عباده، طبقاً لعلمه الشامل المحيط، وإنما يحب الله تعالى عبداً يكون قد ربط نفسه بالله لدرجة أن يصير الله رقيباً عليه، يحذره غاية الحذر، ويصير مالكه ومولاه، فلا يمكنه أن يتخلى عن الوفاء بعهد طاعته له .

إن عباد الله المحبَّبين إليه هم المؤدون للأمانات، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، وعلى أمثال هؤلاء الناس تتنزل رحمة الله وبركاته ، وعلى العكس من ذلك فإن الذين لم يعودوا يهتمون بأداء الأمانة الملقاة في أعناقهم حق الاهتمام، وفقدوا حساسيتهم بالنسبة للوفاء بالعهود، فليس لوجودهم أية قيمةٍ عند الله تعالى، وأمثال هؤلاء يُبعدون عن رحمة الله ونصرته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ
ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ
عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ
ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا

يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

لاَ خَلاقَ لَهُمْ: لا نصيب من الخير أو لا قدر لهم .

وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ: لا يحسن إليهم ولا يرحمهم.

وَلاَ يُزَكِّيهِمْ: لا يطهرهم أو لا يثني عليهم .

يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم: يميلونها عن الصحيح إلى المحرف

وَالْحُكْمَ: الحكمة أو الفهم والعلم .

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ: علماء معلمين فقهاء في الدين .

تَدْرُسُونَ: تقرؤون الكتاب .

إن أحد الناس إذْ يؤمن بالله،فإنه يعاهد الله على أنه سيكون مطيعاً لأوامره طيلة حياته ، وسيقوم بتأدية كل ما تفرض عليه شريعة الله من واجباتٍ ومسئولياتٍ نحو العباد الذين يتعايش معهم في الدنيا ، وهذه حياة منضبطة، يمكن أن تُسمى بـ ((حياة العهد)) وللاستقامة على هذه الحياة، يحتاج المرء إلى كبح جماح النفس والحد من حريتها، ويُضطر بين الفينة والأخرى إلى التضحية بالمنافع والمصالح الذاتية ، ولذا فلن يتمكن من ممارسة حياة العهد هذه بنجاحٍ واقتدارٍ سوى من يختارها بصرف النظر عن المكاسب والخسائر.

وأما الشخص الذي لا يلبث أن يتخلى عن العهد الإلهي إثر صدمةٍ طارئةٍ أصابته ، أو خوفاً من ضياع مكسبٍ دنيوى ، فينحاز بكليته إلى منافعه ومصالحه الذاتية، فكأنه ابتاع الدنيا بالآخرة، إذن فإن الشخص الذي يحسب الآخرة على هذه الدرجة من التفاهة، كيف يكون أهلاً لعنايات الله في اليوم الآخر .

والذين يتخذون من الآخرة وسيلةً لكسب دنياهم، لا يصبحون بالضرورة منكري الدين أو الآخرة، بل إنهم يفعلون ما يفعلون مع تمام إقرارهم بمبادئ الدين والآخرة . إذن فكيف يوائم هؤلاء بين هذيْن الموقفيْن المتناقضيْن إن ذلك يتحقق بالتحريف وذلك باضفاء معانٍ

مزعومة على التعاليم السماوية، وتأويلها على غير المراد الحقيقي منها .

ولكي يتظاهر هؤلاء بالعبودية لله والحنين إلى الآخرة - رغم كونهم غارقين في حب الدنيا ولذاتها من الرأس إلى القدم - يقومون بصياغة التعاليم الدينية وفق ما تهوى نفوسهم باستبدال كلمات الله بغيرها تارةً، بتأويل كلمات الله على ما يتناسب وأغراضهم الذاتية تارةً أخرى ، فهم يتناولون الكتاب الإلهي بالتغيير، بدلاً من أن يغيروا أنفسهم، حتى يجعلوا ما ليس في الكتاب الإلهي من صميم الكتاب الإلهي ، وليوهموا الناس بأن حياتهم المادية الخالية من الله هي حياة ذات صبغةٍ إلهية!! إنها لجريمة أعظم وأشنع ما يكون عند الله أن يعزو المرء إلى الله شيئاً لم يقلْه، إن العلامة البسيطة والقطعية على كون تعليم من التعليم صادقاً حقاً أن يكون ذلك التعاليم بحيث يصل عباد الله بالله، ويزيدهم تقرباً إليه، ويستثير مشاعر الخوف والمحبة الكامنة في نفوسهم، ويوجهها إلى الله ، وعلى العكس من ذلك، فإن التعليم الذي يبعث على تأليه الشخصيات وعبادتها، أوْ على أية عبادةٍ أخرى سواها، والذي يجعل من أحدٍ غير الله مركزاً تتجه إليه عواطف الإنسان اللطيفة، فمن المحقق أنه تعليم باطل بكل معنى الكلمة.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ

وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا
لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا
لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن
يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

إِصْرِي: عهدي.

وَلَهُ أَسْلَمَ: له انقاد وخضع .

وَالأَسْبَاطِ: أولاد يعقوب أو أحفاده.

الإِسْلامِ: التوحيد أو شريعة نبينا ﷺ

يُنظَرُونَ: يؤخرون عن العذاب لحظة .

الظفر بالله هو الظفر بحقيقةٍ أبديةٍ، إنه مرافقة الكون كله في الاتجاه والمسير والغاية ، والذين يظفرون بالله على هذا النحو، يتسامون بأنفسهم فوق الأحقاد والتعصبات بكل أنواعها، ويعرفون الحق على كل حالٍ سواء أكان قد تم إعلانه بلسان ((نبيٍ إسرائيلي)) أم بلسان ((نبيٍ إسماعيلي)) .

وأما الذين يعيشون على مستوى الطائفية، فإن الحق في نظرهم لا يكون حقاً إلا إذا ما ظهر بواسطة أحد أفراد طائفتهم ، ولكن إذا ما أقام الله شخصاً من غير طائفتهم لإبلاغ رسالته إلى الناس، فإن رسالةً كهذه لا تجد لها مكاناً في قلوبهم حتى لو كانوا على يقين بأنها رسالةٌ حقةٌ وصادقةٌ ، وإنْ كان أمثال هؤلاء يظنون أنفسهم مؤمنين، فإنهم يسجلون عند الله ضمن الجاحدين ذلك لأنهم عرفوا الحق بوصفه معزواً إلى طائفتهم وليس بوصفه معزواً إلى الله عز وجل.

إن إنكار الحق ممن أيقن أنه حق أشنع جريمةٍ عند الله تعالى ، وسوف يكون أمثال هؤلاء المجرمين في الآخرة من الذلة والهوان بحيث يلعنهم الله والملائكة، ويلعنهم الناس أجمعون .

وربما يبدو أن عدم الاعتراف بالحق الذي يأتي من الخارج هو احتفاظ بالإيمان وصيانته ، غير أن ذلك هو إحباط الإيمان وإضاعته ، إن عبد الله المؤمن يعيش على ما يتلقاه من فيض الله المستمر، إذن فإن الشخص الذي يكون قد انطوى على نفسه أو انكمش في قوقعة الطائفية، بعيداً عن الحق بمسافات قصيرة ، فبأي مدخلٍ يا تُرى سينفذ الفيض الإلهي إلى أعماقه ، وأي شيءٍ سيُغذي إيمانه وينميه من بعد حرمانه من الفيض الإلهي الغامر؟!

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾
۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ
ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ
ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

الْبِرَّ: الإحسان وكمال الخير.

إِسْرَائِيلَ: يعقوب بن إسحاق عليهما السلام.

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

بِبَكَّةَ: مكة المكرمة .

تَبْغُونَهَا عِوَجاً: تطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج.

لقد كانت لحوم الإبل والأرانب محرمةً على اليهود ؛ لتحريم أحبارهم لها ولكن الشريعة الإسلامية بينت أنها حلالٌ طيب ، مما دفع اليهود إلى إثارة تساؤلاتٍ عما إذا كان الإسلام دينا منزلاً من عند الله، فلماذا لا يتفق مع التوراة ((المحرفة)) ؟! وكيف يمكن أن ينزل الله دينًا يتخذ من الكعبة قبلةً مكان ((بيت المقدس))، الذي لم يزل حتى الآن قبلة الأنبياء والمرسلين قاطبةً ؟!

إن دعوة الحق حين تقوم في صورتها الخالصة،تشتد وطأتها على الذين كانوا يروّجون بين العوامّ ديناً موضوعاً مزوراً من عند أنفسهم، ثم لا يلبث هؤلاء أن يعارضوها،ويحاولوا صرف الناس عن اتباع دعوة الحق بإلقاء ألوانٍ من الشبه والشكوك في قلوبهم، إن دينهم المزعوم لم يعد على أسس الدين ومبادئه الجوهرية، وبدلاً من ذلك يظهر إلى حيز الوجود هيكل شكلي للدين؛ يتمخض عن التعمق والتنقير في فروع الدين وجزئياته، وعندئذٍ تنقلب مقاييس القيم، فيتركز الاهتمام كله على هذا الهيكل الشكلي المفروض؛ فيعد المتمسك به غايةً في البر والصلاح، وآيةً للكمال والتقوى والورع، مهما تكن نوعية حياته الحقيقية .

فالمرء – في ظل هذا الهيكل – يُبالغ في التحاشي عن أكل لحم ((الأرنب))،استناداً إلى أن أكابر أمتنا لم يكونوا يأكلونه، مع كونه قد استحلّ لنفسه مجموعةً كبيرةً من الأشياء المحرمة، كما يعتقد بوجوب الاتجاه نحو ((بيت المقدس)) على نحوٍ مستقيم تماماً ، ولكنه لا يرغب في توجيه تصرفاته اليومية نحو الله عز وجل ، غير أن مقام البر والصلاح لا يمكن أن يناله أحد إلا بالتضحيات دون إقامة المظاهر السطحية الرخيصة .

وإن عبد الله الصالح هو الذي يتقدم بإهداء مشاعر حبه وإخلاصه إلى ربه، الذي لم يَعُدْ شيء في الوجود كله أحب إليه منه ، والذي يعترف بالحق ولو كان على حساب مركزه أو مكانته الذاتية ، والذي يمضي قدماً في سبيل الله، حتى لو اضطُر إلى بذل كل ما يملك، وتعريض مستقبل أولاده للخطر، إن الشخص الذي يتسع صدره لاحتمال كل شدةٍ ومكروهٍ من أجل الله، ويرضى بالله عوضاً عن أغلى وأحب ما لديه من مقتَنياتٍ؛ ليعطيها في سبيله عن طيب خاطرٍ، هو وحده الظافر بدرجة البر العالية ومقام العبودية الخالصة لله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ

إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُوا۟
بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾

وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ: يلتجئ إليه أو يستمسك بدينه.

حَقَّ تُقَاتِهِ: حق تقواه: أي اتقاء حقا واجبا .

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله: تمسكوا بعهده أو دينه أو كتابه .

شَفَا حُفْرَةٍ: طرف حفرة.

الدنيا مكان الابتلاء، حيث يكون المرء دائماً في خطر أن يتخطف الشيطان إيمانه على حين غرة، فتقبض الملائكة روحه - عند انتهاء أجله - وقلبُه خلو من الإيمان ، ولذا فلابد للمرء من اليقظة الدائمة، والرقابة المستمرة على نفسه .

ومن صور الابتعاد عن الإيمان أن تُوضع عناصر الدين في غير مواضعها، فيتأخر الأهم ويتقدم ما دونه.

والحبل الرئيسي للدين هو التقوى، يعني الخوف من الله، والموقف من كل قضيةٍ في الحياة العملية، ينبثق عن تصوّر الحساب أمام الله عز وجل ، والاستقامة على هذا الدرب حتى الموت، ذلك هو الصراط المستقيم بعينه . والانحراف عن ذلك يتمثل في أن يؤُخذ أي شيء آخر، بدلاً من التقوى محوراً للدين ومداراً، وعند ذاك ستنقسم كلمة الأمة بالضرورة، وينفرط عقدها، إذ يأخذ بعض في التركيز على عنصرٍ غير أساسيٍ ، ويُركز بعض آخر على عنصر أساسى آخر وهكذا تفترق الأمة الواحدة طرائق قدداً .

إن التركيز والتأكيد، إذْ يكون منصباً على عنصر التقوى، تتركز التوجيهات والاهتمامات كلها على الله الواحد الأحد ، مما يؤدي إلى إيجاد الوحدة والائتلاف ، وأما إذا تمركزت الاهتمامات والتوجيهات حول الأمور الفرعية من الدين وأحكامه الجزئية المختلف فيها، نتيجة التركيز الكلي عليها مكان التقوى، فذلك مما يُحدث التفرقة بين الناس ويبعد شملهم، ويوصلهم إلى شفير الهاوية ، إن انقسام كلمة الأمة - أية أمةٍ كانت - عذاب لا ينتهي، فتشقى به في الدنيا وفي الآخرة معاً ،لقد كانت هناك قبيلتان عربيتان بالمدينة قبل ظهور الإسلام؛ هما الأوس والخزرج ، ولم تزل تندلع بينهما الحروب حتى أضْعفتْهم وأنهكتْ قواهم ، وما إن دخلت هاتان القبيلتان في الإسلام حتى انتهت كل خصوماتهم وحروبهم الداخلية، وبدأوا يتعايشون في جوٍ من الإخاء والمودة والوئام .

والسبب في ذلك يرجع إلى أن الفرد في غير الإسلام إنما يكون وفياً لنفسه، أما في ظل الإسلام فيكون وفياً لله الواحد الأحد لا غير، والمجتمع الذي يكون الأفراد فيه أوفياء لأنفسهم أو لطائفتهم تتعدد هناك الولاءات، وما الفُرقة والتصادم سوى نتيجةٍ عملية لازمةٍ لتعدد الولاءات على هذا النحو ، وعلى العكس من ذلك فإذا كان أفراد المجتمع أوفياء مخلصين لله الواحد الأحد، فإن أنظار الجميع وتوجهاتهم تصير منصبةً على مركزٍ واحدٍ، ويصبح الجميع مشدودين بحبلٍ واحدٍ متينٍ، وهكذا تتلاشى تلقائياً كل دواعي التفرقة وعوامل الخصومة .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ
ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يُرشد قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ إلى أمرين اثنين في آنٍ واحدٍ: أولهما له علاقة بطبقة الخواص، والثاني يتعلق بالسواد الأعظم ، فالمطلوب من خواص الأمة ألا يهدأ لهم بال، إذا رأوا أي منكرٍ يتفشى في الأمة، حتى يقتلعوا جذوره، وأن يكونوا غايةً في القلق على نشر الخير والصلاح، وإن روح الإصلاح والترشيد تحدو بهم إلى أن يكونوا على اتصالٍ دائمٍ بأحوال الناس، ولا يعيشون بمعزلٍ عما يعانونه من همومٍ ومشكلات، ويحثّوا إخوانهم في الدين على مواصلة السير في طريق الرشد والخير، واجتناب الفحشاء والمنكر ، غير أن هذه المهمة الإصلاحية لن تُكلل بالنجاح المطلوب ما لم تتوافر روح الطاعة في عوامّ الأمة، وما لم يُسلموا أزمّة أمورهم كلها إلى العلماء المتخصصين في قضايا الدين ، وإن الطائفة المسلمة التي يكون الخاصة والعامة فيها على هذه الدرجة من الوعي بما لهم وما عليهم هي وحدها الطائفة التي سيُكتب لها التوفيق والفلاح ، إذْ في مناخٍ من السمع والطاعة على هذا النحو، تتولد في مجتمعٍ ما، تلك الخصائص والصفات العليا التي تجعله مجتمعاً قوياً مرهوب الجانب في الدنيا، وأهلا للنجاة والسعادة في الآخرة .

ومن فوائد يقظة هذه الروح في الخواص أن كل اهتماماتهم وتوجهاتهم تكون مرتكزةً على الخير وعلى أسس الدين ومبادئه الجوهرية ، فلا يتبقى أمامهم فسحة من الوقت للتعمق والتنقير في الفروع والمسائل الجزئية ، إن الذين يجعلون من أنفسهم شهداء لعظمة الله وجلاله، وينهضون منذرين ومبشرين للآخرة، لن يتسع لديهم الوقت - بطبيعة الحال - لكي يقوموا بإبراز براعتهم في جزئيات الأحكام الشكلية من الدين ، وعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توجه كل جهودهم وطاقاتهم نحو إصلاح المشكلات الحقيقية الواقعة فعلاً .

ومن الثمار التي يجتنيها العامة عبر توطينهم أنفسهم على تقبل نظام السمع والطاعة هذا، أنهم يَنجوْن من شر التحزب والتكتل وانقسام الكلمة ، ويصيرون وحدةً قويةً متماسكةً نتيجة اتباعهم لأمرٍ واحدٍ، وبالتالي تصبح الوحدة والائتلاف بمثابة ميزةٍ أو صفةٍ عامةٍ لازمةٍ لهم، ولا ريب في أنه ليس هنالك قوة أقوى ولا أعظم في هذه الدنيا من الوحدة والائتلاف .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ
ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ
ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

أَذًى: ضررا يسيرا بالكذب أو بالتهديد .

يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ: ينهزموا ويخذلوا.

الذِّلَّةُ: الذل والصغار والهوان.

ثُقِفُوا: وجدوا أو أدركوا .

بِحَبْلٍ مِّنَ الله: بعهد منه تعالى وهو الإسلام .

وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ: عهد من المسلمين .

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ: رجعوا به مستحقين له .

المَسْكَنَةُ: فقر النفس وشحها.

لقد كان اليهود مكلفين بحمل الدين الإلهي،ولكنهم لم يتمكنوا من القيام بحمله على النحو المطلوب، كما أخفقوا كل الإخفاق في الاحتفاظ بالدين وصيانته صافياً نقياً، ثم بعث الله تعالى من بعد ذلك محمداً ﷺ بدينه في صورته الصحيحة الخالصة ، والآن فقد صارت الأمة المسلمة هي المرشحة لإرشاد البشر كافةً إلى الهداية الإلهية.

وهذه المهمة الخطيرة تفرض على الأمة أن تؤمن بالله إيماناً صادقاً، وتهدي العالم كله إلى الخير والمعروف، وتُخبره بما لا يرضاه الله عز وجل من منكر القول والفعل، وبما أن هذا العمل عمل إلهي، فقد جعله الله مقروناً برعايته وحمايته الدائمة ، فتكفل الله للقائمين بهذا العمل

الإلهي بأنّ أعداءهم ومعارضيهم لن يلحقوا بهم ضرراً ذا بال : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾.

غير أن الذين ينكثون العهد، بعدما عُهد إليهم بمهمة إبلاغ الحق هذا، سيعاقبون في هذه الدنيا بحرمانهم المطلق من أسباب العزة والرفعة الذاتية ، وبسبب حرمانهم من نفحات رحمة الله وعناياته، تصير قلوبهم قاسيةً متحجرةً لدرجة أنهم يتصدون للقضاء على أولئك الذين ينهضون لتنبيههم إلى مواطن ضعفهم وتفريطهم في تأدية الأمانة الملقاة في أعناقهم .

وقوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يشير إلى سنةٍ إلهيةٍ، خاصةٍ بالأمة التي رشحها الله لتمثيل دينه ، إن قيام هذه الأمة بتمثيل الدين تمثيلاً صادقاً يضمن لها الغلبة والانتصار، فلا تقوم لها قائمة في الدنيا الحاضرة ، إن أمةً كهذه لن تتمكن من إحْراز الانتصار والغلبة الذاتية في هذه الدنيا، فيما لو نفضت يدها عن تمثيل دين الله ، وإنْ حصلت على أي نوعٍ من السلطة فإما أن يكون ذلك على ذمة حكومةٍ إلهيةٍ، وإما أن يكون تابعاً لأية أمةٍ أجنبيةٍ تولت حمايتها، وقامت بدعم كيانها القومي .

وعقوبة الذلة والمسكنة تستحقها أي أمة بلغت من العناد والطغيان ما تنكر معه الآيات الإلهية ، إن إنكار الآيات يعني إنكار الدلائل الصادقة ، والحق دوماً يظهر في صورة الدلائل، ولذا فإن الشخص الذي يرفض الدليل الصادق، فإنما هو يرفض الذات الإلهية نفسها.

﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ
فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

لَيْسُوا سَوَاءً: ليس أهل الكتاب بمستوين .

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ: طائفة مستقيمة ثابتة على الحق.

لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ: لن تدفع عنهم أو تجزي عنهم .

فِيهَا صِرٌّ: برد شديد . أو سموم حارة .

حَرْثَ قَوْمٍ: زرعهم .

المراد من «المسارعة في الخيرات» في هذا المقام، هو مبادرة المؤمنين من أهل الكتاب بتصديق الرسالة الخاتمة متواضعين، وفي ذلك الوقت كان دين موسى، قائما على أرضيةٍ من العظمة التاريخية والقداسة التقليدية، لم يكن دين محمد ﷺ قد ازدان بعدُ بالعظمة التاريخية والقداسة التقليدية، وإنما كان يدعمه ويؤيده إذ ذاك قوة الدليل والبرهان وحدها ، ولقد كان هذا الفارق بين دينهم الموروث، ودين نبي العصر، يشكل عقبةً كئوداً دون تلقيهم الدين الجديد بالقبول، غير أنهم وُفقوا لاجْتياز هذه العقبة بنجاحٍ، فبادروا إلى اعتناق دين نبي العصر .

حب المال والأولاد يحول بين المرء وبين سيره في طريق دين التضحية والتكاليف ، بيد أنه يتظاهر بإقامة الشعائر؛ ليزعم أنه قائم بدين الله، متمسك بأهدابه ، ولكن كما أن العاصفة الشديدة البرودة تصيب الزرع فتُهلكه، كذلك سيجعل طوفان القيامة أعمالهم الظاهرية كلها هباءً منثوراً .

لم يكن هناك سوى القليل من اليهود الذين آمنوا برسالة النبي ﷺ ، ولكن يتضح من خلال إطلاق «أمةٍ قائمةٍ» على هؤلاء - رغم ضآلتهم العددية - أن قلةً قليلةً تخشى الله حق خشيته، تكون أعظم قيمة وأرجح كفةً عند الله من جموعٍ غفيرةٍ لا تخشاه .

ولا يكفي للنجاة في اليوم الآخر، أن يكون المرء هنا منضماً إلى أمةٍ عريقةٍ تنتمي إلى أحد الأنبياء ، بل المطلوب الجوهري هو أن يكون المرء موفياً بالعهد ، والمراد من العهد هو الإيمان والإيمان عهد بين العبد وبين الله. فالمؤمن يُلزم نفسه بأنه سيظل وفياً مخلصاً لله ومطيعاً له تعالى طوال حياته .

وهذا العهد يتضمن كل المسئوليات الإيمانية المتمثلة في ذكر الله في الخلوات، وعبادته آناءَ الليل، وممارسة الحياة مع الاستحضار الدائم للآخرة، وحث الآخرين على السير في طريق الخير والمعروف، وبذل قُصارى الجهد لتطهير المجتمع من المنكرات والآثام، والمبادرة إلى إنجاز الأعمال المحببة إلى الله ، وهؤلاء الموفون بالعهد الرباني وهم وحدهم عباد الله المرضيّون عنده، وإن الله عز وجل عليم بكل ما قد عملوه، فيجزل لهم الأجر والمثوبة على أعمالهم، ويقدر جهدهم في سبيل نشر الخير واقتلاع جذور الشر حق قدرها في يوم الدين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

بِطَانَةً: خواص يستبطنون أمركم .

لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً: لا يقصرون في فساد دينكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ: أحبوا مشقتكم الشديدة .

خَلَوْا: مضوا . أو انفرد بعضهم ببعض .

مِنَ الغَيْظِ: أشد الغضب والحنق.

لقد آمن المسلمون بالدين الإلهي نفسه الذي تلقاه أهل الكتاب السابقون، إذْ كان دين الطائفتيْن كلتيْهما واحداً من حيث حقيقته الجوهرية،غير أن اليهود لم يلبثوا أن بلغوا من العداوة والبغضاء للمسلمين حداً كبيراً حتى إذا نزلت بالمسلمين مصيبة غمرهم الفرح

والسرور .

وكان السبب وراء هذه الأحقاد والعدوات الدينية في قلوب اليهود أنهم اتخذوا ديناً مصطنعاً من عند أنفسهم، ناسبين إيّاه إلى أنبياء بني إسرائيل ، وعلى أساسٍ من ذلك احتلوا مركزاً قيادياً بين الجماهير، في رحاب الدين الإلهي تكون الاهتمامات كلها متجهةً نحو الذات الإلهية، أما في ظل الديانة المصطنعة الزائفة، فينصب اهتمام الناس على صانِعيْها ومفسرِيْها ، وأمثال هؤلاء لا يستسيغون انتشار الدعوة إلى الدين الحق، إذْ يُخيلّ إليهم وكأنها تعمل على تقليص ظلهم، ودفعهم عن مراكز القيادة والعظمة .

ومما يجب على عباد الله المخلصين، في مواجهة مثل هذه المواقف، أن يأخذوا حذرهم من كل ردّ فعلٍ سلبيٍ، ويلتزموا بالصبر والتقوى ، ومعنى الصبر هو الاستقامة على جادة الحق في كل حالٍ من الأحوال ، وأما التقوى فهي عبارة عن الاعتقاد الجازم بأن القوة الحاسمة هي الله عز وجل، وليس أحد سواه ، ولو تبنىّ المسلمون مثل هذا الموقف الإيجابي، لم يكن لأعدائهم أن ينالوا منهم شيئاً، ولكن ينبغي للمسلمين أن يكونوا واقعيين، فيميزوا عدوهم من صديقهم، حتى لا يتمكن أحد من أن يخدعهم استغلالاً لصفاء قلوبهم وطهارة نفوسهم .

وواقع انطواء قلوب المسلمين على مهادنة اليهود، وخلو قلوب اليهود من محبة المسلمين، يوضح لنا أي الفريقيْن على الحق وأيهما على غير الحق ، إن الله كله الرحمة والعدل، وهو خالق ومالك بني البشر أجمعين، ولذا فإن الشخص الذي يظفر بالله على نحوٍ حقيقيٍ، ينفتح صدره لعباد الله أجمعهم، ويصير كل البشر في نظره عيال الله على قدم المساواة، وبالتالي فهو يحب لكل أحدٍ ما يحب لنفسه ، ولكن الذين لم يُدركوا الله على نحوٍ حقيقيٍ، والذين لم يدمجوا إرادتهم في إرادة الله يعيشون على مستوى ذاتهم وحدها، وبضاعة حياتهم تكون منحصرةً في إطار منافعهم الشخصية وتعصباتهم الطائفية.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ

لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ
إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ
فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

غَدَوْتَ: خرجت أول النهار من المدينة.

تُبَوِّئُ: تُنزِل وتُوطن.

مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ: مواطن ومواقف له يوم أحد.

أَن تَفْشَلَا: تجبنا وتضعفا.

أَذِلَّةٌ: بقلة العدد والعدة.

أَن يُمِدَّكُمْ: يقويكم ويعينكم يوم بدر.

وَيَأْتُوكُم: أي المشركون.

فَوْرِهِمْ هَٰذَا: ساعتهم هذه بلا إبطاء.

مُسَوِّمِينَ: معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات.

لِيَقْطَعَ طَرَفاً: ليهلك طائفة.

يَكْبِتَهُمْ: يخزيهم ويغمهم.

نزلت هذه الآيات عقب وقعة أحدٍ،سنة ثلاثٍ من الهجرة، وفي هذه الوقعة كان عدد الأعداء يبلغ ثلاثة آلاف مقاتلٍ، في حين خرج لمقاومتهم ألف رجلٍ من المسلمين، وبينما

المسلمون في منتصف الطريق انخذل عبد الله بن أبيّ بثلاثمائةٍ من أصحابه، مما أثار موجةً من الانهزامية والوهن في نفوس بعض الأنصار، لولا أن ذكرهم رسول الله ﷺ بأننا لم نخرج ثقةً بأنفسنا، وإنما خرجنا توكلاً على الله وحده، وقد شرح الله صدور المسلمين لفهم هذه الحقيقة،فاطمأنت قلوبهم، وارتفعت معنوياتهم ، إن الله تبارك وتعالى لا يخذل العبد المؤمن إذا طرأ عليه طارئ من الضعف والاستكانة، بل يأخذ بيده،ويثبته من جديدٍ على جادة الإيمان ، وقد ظهرت نُصرة الله هذه على المستوى الاجتماعي في غزوة أحدٍ؛حيث تغلب العدو على المسلمين،اغتناماً لزلةٍ صدرت منهم .

ينبغي للمؤمن ألا يُصاب بالجزع والهلع من قلة العدد أو ضآلة الإمكانيات ؛ إذْ لو كان العدد قليلاً، فليتأكدْ أن الله تعالى سيكمل هذا النقص العددي بواسطة مددٍ من الملائكة، ولو كانت الوسائل غير كافيةٍ، فليثقْ بأن الله سيخلق من عنده أجواءً تسد مسدّ النقص في الوسائل ، إن مدار النجاح والانتصار ليس على الوسائل المادية، بل على الصبر والتقوى .

وتتخذ نصرة الله للذين يخشون الله ويعتمدون عليه تعالى، صورتيْن اثنتيْن: إحداهما تتمثل في قطع طرفٍ من معارضيهم، والثانية تتمثل في كسر شوكة المعارضين وإلحاق الهزيمة بهم ، ومصدر الانتصار الأول هو الدعوة؛ إذْ يوفق الله الأفراد من الطرف المقابل، الذين يتمتعون بشيءٍ من الحياة والحيوية، يوفقهم للاقتناع بالدين فهم يبدأون بالانضواء تحت لواء الحق، وأما في الصورة الثانية، فإن الله يزيد فيها من قوة أهل الإيمان، ويرفع من معنوياتهم، ويُمدهم بمددٍ خصوصيٍ يجعلهم يتغلبون على العدو .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ

ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم
مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ
﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

مُّضَاعَفَةً: كثيرة وقليل الربا ككثيره.

السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ: اليسر والعذر.

وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ: الحابسين غيظهم في قلوبهم.

فَعَلُوا فَاحِشَةً: معصية كبيرة متناهية في القبح.

خَلَتْ: مضت وانقضت.

سُنَنٌ: وقائع الأمم المكذبة.

المراباة هي الصورة المتناهية في القبح والشناعة لعبادة المال، والشخص المصاب بعبادة المال يكون دائماً مشغول البال في البحث عما سيجعل ثرواته ضِعفيْن فصاعداً، فيأخذ في الاندفاع وراء ثروة الدنيا، في الوقت الذي يجدر به أن يسعى نحو جنة الآخرة، ويزداد شوقاً ورغبةً في نيل رحمة الله ونصرته، وإنما يريد المرء تنمية ثروته لكي ينال الحظوة والمكانة عند الناس، ولكي يضمن لنفسه عيشاً رغيداً في الدنيا، غير أن نجاح هذه الدنيا ومكانتها لا يتمتعان بأية قيمةٍ حقيقيةٍ، إذْ إن الجنة لها وحدها الأهمية البالغة، فأفراحها لا تفنى، ولذاتها لا تنتهي أبداً، والعاقل هو الذي يندفع نحو الجنة .

والسعي وراء الجنة يعني أن يبذل المرء القسط الأوفى من ماله في سبيل الله، إن الطريق إلى النجاح الدنيوي هو «تنمية المال»، وأما الطريق إلى الفلاح الأخروي فهو «إنفاق المال»، وإذا كان رأسمال الصنف الأول من الناس هو حب المال، فإن رأسمال الصنف الثاني هو حب الله ورسوله، وإذا كان الصنف الأول من الناس خائفاً من خسائر الدنيا، فإن الصنف الثاني يخاف أشد الخوف من خسران الآخرة .

والذين يخافون الله، تغلب عليهم شيئاً فشيئاً نزعة «الإحسان»، حتى يصبح الإحسان بمثابة طبيعةٍ ثانيةٍ لهم، يعني أنهم يحاولون دائماً أن يعملوا كل عملٍ بأسلوبٍ يجعله أحب ما يكون إلى الله وأقرب إلى مرضاته تعالى، فهم يعيشون في الدنيا حياةً منضبطةً، بدلاً من حياةٍ متحررةٍ طليقةٍ، ويجعلون من مطالب دين الله مطالب لأنفسهم بالذات، فيبذلون في سبيل تحقيقها على كل حالٍ من اليسر والعسر، والرخاء والشدة، ويعفون عمن ظلمهم أو أساء إليهم، برغم قدرتهم على الانتقام، ومع أنهم غير معصومين من الخطأ، فإن أخطاءهم تكون وقتيةً؛ فهم لا يكادون يقعون في خطأ حتى يثوبوا إلى رشدهم فوراً، ويتوجهوا إلى الله ثانياً، سائلين إياه بخشوعٍ وحرارةٍ بالغيْن أن يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم!!

إن التاريخ يتحدث بلسان العمل عن الهدي الرباني الذي تم تبْيينه في القرآن في كلامٍ يُقرأ، غير أن الموعظة لن ينتفع بها إلا الذين يبحثون عن الموعظة.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

وَلاَ تَهِنُوا: لا تضعفوا عن قتال أعدائكم.

قَرْحٌ: جراحة يوم أحد.

قَرْحٌ مِّثْلُهُ: يوم بدر.

نُدَاوِلُهَا: نصرفها بأحوال مختلفة.

الإيمان يعني توجيه الحياة كلها لله، ولقد وعد الله الذين يؤمنون به، أن يكتب لهم الغلبة في الدنيا، ويُدخلهم الجنة في الآخرة، وأن يُنعم عليهم بكرامته الكبرى، وهي أن يجعل منهم «شهداء» في محكمته، على أولئك الذين كانوا قد رفضوهم في الحياة الدنيا، وبناءً على شهادتهم يحدد المصير الدائم الذي يلحق بأولئك المنكرين، غير أن هذه الدرجة الرفيعة لا تتأتى بمجرد إقرارٍ لسانيٍ، بل لابد لذلك من أن يُثبت المرء صدقه في الصبر والجهاد.

والمؤمن ليس له بد من مواجهة ألوانٍ من الصعوبات والعراقيل من قِبل الآخرين على أية حالٍ ، ومقاومة هذه العراقيل والصعوبات هي الجهاد ، وإكراه النفس على الثبات على الحق في كل الظروف هو الصبر ، والذين يقدمون هذا النوع من الجهاد والصبر، هم وحدهم المؤهَلون ليرثوا الجنة ، وذلك يشق لهم أيضاً طريقاً إلى الغلبة والانتصار في الدنيا ؛ لأن «الجهاد» ضمان لاستمرارية عملهم على الوجه الأكمل، وأما «الصبر» فهو كفيل بأنهم لن يندفعوا وراء العواطف المجردة ، وهاتان خلتان إذا وُفقت طائفة ما للجمع بينهما، فإن نجاحها في دنيا الله هذه يصير مؤكداً بتوفيق الله، تماماً كما يكون من المؤكد بإرادة الله إثمار بذرةٍ أُلقيت في تربةٍ ملائمةٍ .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وَلِيُمَحِّصَ: ليصفي ويطهر من الذنوب .

وَيَمْحَقَ: يهلك ويستأصل .

إن من يريد السير في طريق الله فسوف يواجه دائماً مشكلاتٍ شتى ، وربما تجرّه هذه المشكلات بدورها إلى الحيرة ، وقد تملأ قلبه كله بحب المصلحة الذاتية وحدها، وقد تثير في نفسه مشاعر سلبيةً ، وقد توحي إليه بفكرة إعداد «دينٍ جماهيريٍ» يحظى بالقبول والانتشار الواسعين بين الناس، إزاء دين الله الخالص النقي ، وذلك هو الاختبار الذي يمر به المرء في الدنيا .

ومن خلال الخطوات العملية أو ردود الفعل تجاه هذه المواقف، يتضح ما إذا كان صادقاً في إقراره أو كاذباً ، فإن كان عمله مطابقاً لدعوى إيمانه فهو صادق، وإن كان عمله خلافاً لدعواه فهو كاذب .

الشهادة لله هي النقطة النهائية لهذه المسيرة الإيمانية الطويلة؛ إذ ينبعث أحد عباد الله بين

الناس، بوصفه داعياً إلى الحق، بحيث يكون هو نفسه ترجمةً حيةً وأنموذجاً كاملاً لما يدعو إليه الآخرين، والناس يقابلونه بالإهانة والازدراء، ولكنه لا يحفل بلومة لائم، وقد تعترضه ضروب شتى من المشكلات والصعوبات، لكن هذا لن يغير من وجهته، وقد تتعرض نفسه للخطر، ولكنه لا يحيد عن موقفه الدعوي قيد أنملةٍ، ويظل صامداً في وجه كل الظروف والأزمات مهما تفاقمت، ومهما اشتدت وطأتها عليه.

إن هذا الاختبار قاسٍ للغاية، غير أن ليس هنالك بد من المرور به؛ إذْ به يتم إعداد الإنسان الذي سيتخذ منه الله تعالى شهيداً على عباده، إن المرء حين يظل ثابتاً مُصراً على نشاطه الدعوي، برغم كل ما يعترض طريقه من المآزق الحرجة، يؤكد تأكيداً عملياً على مدى يقينه واقتناعه برسالته، كما يؤكد أيضاً على أن الشيء الذي ينبه الناس إليه، هو أمر جدّي متناهٍ في الجدية، وليس بأمرٍ عفويٍ عابرٍ لا يؤبه له.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

كِتَاباً مُّؤَجَّلاً: مؤقتا بوقت معلوم.

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ: كم من نبي – كثير من الأنبياء.

رِبِّيُّونَ: علماء فقهاء. أو جموع كثيرة.

فَمَا وَهَنُوا: فما عجزوا . أو فما جبنوا .

وَمَا اسْتَكَانُوا: ما خضعوا . أو ما ذلوا لعدوهم .

أُشيع في أثناء معركة أحد أن النبي ﷺ قد قُتل، مما جعل بعض المسلمين يدب إلى قلوبهم الوهن والانهزامية ، غير أن عباد الله حقا هم الذين لا يعتمد تديّنهم على شخصيةٍ معينة ، إنما التدين المطلوب عند الله أن يكون العبد قد ربط روحه كله وكيانه كله بالله الواحد الأحد وحده .

إن الإنسان المؤمن هو الذي يتخذ من الإسلام ديناً، بناء على صدقه المبدئي الأصيل، وليس استناداً إلى أية شخصيةٍ من الشخصيات .

والشخص الذي يُوفق لإدراك الإسلام على هذا النحو، يصير الإسلام عنده نعمةً تملأ روحه كلها بمشاعر الشكر والامتنان نحوها ، ويحسب الآخرة، بدلاً من الدنيا، هي كل شيءٍ، وتعود الحياة في نظره شيئاً زائلاً في أية لحظةٍ .

وأمثال هؤلاء هم المسافرون في سبيل الله حقاً ، وإذا شاء الله مكن لهم في الأرض، إضافة إلى ما سوف يختصهم وحدهم به من الكرامات الكبرى والنعيم الأبدي في الآخرة. غير أن هذه الدرجة الرفيعة لن ينالها إلا الذي يجتاز كل مراحل الابتلاء والامتحان بنجاحٍ.

ومسلسل اختبار المؤمن، لا يزال جارياً كل يومٍ دون انقطاعٍ، والذين ينجحون في هذا الاختبار هم الذين يُكتب لهم كل أنواع العزة والسعادة والرقي في الدنيا والآخرة .

إن اتحاد كلمة أهل الإيمان، ووقوفهم جنباً إلى جنب في المواقف الخطيرة الحاسمة، وتواصيهم بالصبر والثبات على الحق في كل الظروف والأوضاع، مما يجعلهم مستحقين لنصرة الله الخاصة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ

وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ
مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا
تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا
تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

اللهُ مَوْلاكُمْ: الله ناصركم لا غيره.

الرُّعْبَ: الخوف والفزع.

سُلْطَاناً: حجة وبرهانا.

مَثْوَى الظَّالِمِينَ: مأواهم ومقامهم.

إِذْ تَحُسُّونَهُمْ: تقتلونهم قتلا ذريعا.

فَشِلْتُمْ: فزعتم وجبنتم عن عدوكم.

لِيَبْتَلِيَكُمْ: ليمتحن صبركم وثباتكم.

تُصْعِدُونَ: تذهبون في الوادي هربا.

وَلاَ تَلْوُونَ: لا تعرجون.

فَأَثَابَكُمْ: فجازاكم الله بما عصيتم.

غَماًّ بِغَمٍّ: حزنا متصلا بحزن.

لقد كانت الهزيمة الوقتية العارضة في موقعة أحد فرصةً انتهزها معارضو الإسلام، فبدأوا يقولون: إن أمر هذا النبي وأتباعه ليس بأمر إلهي؛ إذ لو كان ذلك أمراً إلهياً، لم يكن لأعدائهم أن يُلحقوا بهم الهزيمة المنكرة.

غير أن الهزائم والنكسات من هذا النوع، وإنْ كانت في ظاهر أمرها قد وقعت نتيجة لخطأ المسلمين أنفسهم تكون على كل حال اختباراً من الله عز وجل ، فليس هنالك بد من مواجهة ((وقعة أحد)) في معترك الحياة الدنيا، حتى يتميز من كان يعتمد على الله وحده، ممن ينقلب على عَقِبَيْه، وينسلخ من إيمانه ، ومثل هذه الوقائع تكون ابتلاء ثُنائياً أو مزدوجاً بالنسبة للمؤمن، فمن جانبٍ يكون المطلوب منه ألا يتأثر بما قد يثيره المعارضون من الأراجيف والمثبّطات والشكوك حول مستقبل الإسلام ، ومن جانبٍ آخر يجب عليه ألا يقع فريسة الفزع والهلع من المعاناة الوقتية الطارئة، وأن يبقى صامداً لا يتزحزح عن موقفه على أية حالٍ ، ولو ظل أهل الإيمان صامدين في وجه المواقف الخطيرة والأزمات الشديدة الوطأة، فسرعان ما تنزل من عند الله ((نصرة الرعب)) .

إن إصابة المسلمين بالضعف والهزيمة يرجع إلى سببٍ واحدٍ لا ثاني له، ألا وهو ((التنازع في الأمر)) ، وليس هنالك من سبيلٍ إلى الوحدة والائتلاف بين طائفةٍ ما، إلا بالتخلص من هذا السبب ، حتى وإن اختلفت الآراء وتعددت وجهات النظر .

وما دام هذا السمو الفكري والانفساح الذهني سائداً في طائفةٍ ما، فإنها تظل متحدةً متماسكةً، قويةً وغالبةً ، وأما إذا صار الاختلاف في الرأي والمذهب، أساساً لافتراق القوم طرائق قدداً، وكتلاً متفرقةً، فلا مناص إذن من أن يصيبهم الضعف المؤدي بهم حتماً إلى الهزائم والنكسات المتوالية .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ

ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾

أَمَنَةً : أمنا وعدم الخوف.

نُعَاساً: سكونا وهدوءا أو مقاربة للنوم .

يَغْشَى: يلابس كالغشاء .

لَبَرَزَ: لخرج .

مَضَاجِعِهِمْ: مصارعهم المقدرة لهم أزلا .

وَلِيَبْتَلِيَ: ليختبر وليمتحن وهو العليم الخبير .

وَلِيُمَحِّصَ: ليخلص أو ليزيل أو ليكشف ويميز.

اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ: حملهم على الزلة بوسوسته.

إن أهم شيءٍ في معترك الحياة ألاَّ يفقد المرء أبداً شعوره بالأمن والطمأنينة الداخلية، ويبقى دائماً مستعداً لتركيز جهوده واهتماماته كلها على إنجاز خطته المرسومة، وبلوغ غايته المنشودة ، ويكون أهل الإيمان، نتيجة ثقتهم بالله وتوكلهم عليه، متمتعين بهذه الطمأنينة الداخلية على أكمل وجهٍ، حتى في أثناء المواقف المفزعة، تلك التي يُصاب الناس فيها بالقلق والانزعاج المؤرِّقَيْن؛ فلا يعرف الندم سبيلاً إلى جفونهم، يمكنهم أن يستعيدوا نشاطهم وحيويّتهم من خلال الاستراحة لساعةٍ أو لبعض الساعة .

وقد شهدت غزوة أحد مظاهرة فعليةً رائعةً لذلك؛ فقد تمكن فلول المؤمنين من أن يأخذوا حظهم من النوم والاستجمام، على الرغم من ألم القروح والجراح، وإرهاق التعب والعناء، وأن يخرجوا مع صباح اليوم التالي، في أعقاب العدو، ليطاردوه، حتى عسكروا بحمراء الأسد – التى تقع على مسافة ثمانية أميالٍ من المدينة – الأمر الذي أدخل الرعب في قلوب الأعداء ، فانطلقوا عائدين إلى مكة لا يلوون على شيء ، ذلك هو شأن أهل الإيمان الصادقين في إيمانهم ، وأما الذين لم يتخذوا من الله ولياً ومعيناً لهم ، فإنهم يرون الأخطار تحدق بهم من كل ناحية، إن أناساً فارغين عن همّ الدين أمثالهم، لا يهمّهم شيء سوى النجاة

بأنفسهم ، فيكونون دائماً قلقين مضطربين؛ لا يقر لهم قرار، ولا ينالون نصيبهم من نصرة السكينة والطمأنينة التي يلقيها الله في قلوب عباده المؤمنين ، وفي غزوة أحد كان عبد الله بن أبي من أصحاب الرأي القائل بالبقاء في المدينة، وقتال العدو فيها إذا ما دخل عليهم غير أن رسول الله ﷺ لم يلبث أن خرج من المدينة، وقاتل العدو في الشّعب ، نزولاً على اقتراح أكثرية المسلمين المخلصين .

ثم إذا حلت الهزيمة بالمسلمين، بسبب خطأ الرماة المرابطين على ثغر الجبل، وجد عبد الله بن أبي وأتباعه فرصةً لإظهار الشماتة بهم، فراحوا يقولون: لو اتفقوا معنا على البقاء في المدينة والقتال فيها، لما حلت بهم هذه الخسارة الفادحة في الدماء والأرواح ، غير أن الموت أمر إلهي لا يتخلف؛ إذْ يوافي كل أحدٍ حيث ينتهي أجله المكتوب وليس بإمكان التدابير الاحتياطية أن تدفع الموت أو تؤخره عن أحدٍ .

وإن أمثال هذه النكبات والأحداث الفاجعة، مهما يكن وراء ذلك من سببٍ في ظاهر الأمر، إنما تحدث وفق مشيئة الله العليا، لكي يتضرع عباد الله المخلصون إلى الله؛ فيزدادوا تقرباً إليه، ويستحقوا المزيد من رحماته، ولكي ينكشف النقاب عن طوية المغرضين الدخلاء الذين انضموا تحت لواء الإسلام لأحد غرضَيْن لا ثالث لهما: مغانم يتوقعونها، أو مغارم يَتَوَقَّوْنَها .

عندما رأى الرماة الخمسون أن المسلمين قد أحرزوا النصر، وأن الأعداء لاذوا بالفرار رغب بعضهم في النزول إلى الميدان؛ ليأخذوا الغنائم والأسلاب إلا أن أميرهم - عبد الله بن جبير - وعدداً من زملائه خالفوهم قائلين : علينا أن نلزم هذا المكان ولا نبرحه على أي حالٍ من الأحوال، بحسب ما أمرنا به رسول الله ﷺ ، وما هو إلا قليل حتى غادر الرماة مواقعهم ما عدا أحد عشر رامياً ، وقد اتخذ الشيطان من هذا الاختلاف والتنازع الداخلي ثغرةً لكي ينفذ منها إلى قلوب المسلمين، ويوقع الارتباك في صفوفهم، غير أنهم لما اعترفوا بخطيئتهم، عفا الله عنهم، ثم نصرهم، بأن قذف الرعب في قلوب الأعداء؛ فارتدوا على أعقابهم، في حين أنهم كانوا متجهين صوب المدينة، ولم يكن بينهم وبينها إذْ ذاك سوى بضعة أميال فقط .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى
ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى
قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ
مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ
تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ
مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن
ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

ضَرَبُوا: سافروا لتجارة أو غيرها فماتوا .

غُزًّى: غزاة مجاهدين فاستشهدوا.

فَبِمَا رَحْمَةٍ: فبرحمة عظيمة .

لِنتَ لَهُمْ: سهلت لهم أخلاقك ولم تعنفهم .

فَظاًّ: جافيا في المعاشرة قولا وفعلا .

لانفَضُّوا: لتفرقوا ونفروا.

فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ: فلا قاهر ولا خاذل لكم .

كل حادثٍ يقع في هذه الدنيا، مهما كان صغيراً أو كبيراً إنما يقع بإذن الله تعالى، غير أن هناك ستاراً من الأسباب والعلل لا يزال مسدولاً على كل الأمور والأحداث؛ بحيث يبدو في ظاهر الأمر أن الأحداث كلها مرتبطة بأسبابٍ معينةٍ، ولكنها في الحقيقة مرتبطة بمشيئة الله العليا ، واختبار المرء يكمن في ألا يتورط في بُؤْرَة الأسباب الظاهرية ، بل يحاول جهده النظر إلى القدرة الإلهية العاملة خفيةٍ من ورائها .

إنّ الإنسان غير المؤمن هو الذي يضل في متاهة الأسباب .. والإنسان المؤمن هو الذي يوُفق لإدراك الحقيقة الأصلية العليا.

إن شخصاً يدعي الإيمان، ثم يحسب أن الحياة والموت، والنجاح والإخفاق، كل ذلك نتاج التدابير والحيل، إن شخصاً كهذا لا عبرة بدعوى إيمانه ، إن الرجل الكافر إذا ما طرأ عليه طارئ صار نهباً للأسى واللوعة والحسرة وهو يقول : لو أني اتخذت كذا وكذا من التدابير لكنت بنجوةٍ مما وقعت فيه ، ولكن الرجل المؤمن ينظر إلى ما يُلم به من الطوارئ والنكبات نظرةً تنم عن الهدوء النفسي والطمأنينة والقناعة الداخلية، ويرجع ذلك إلى إرادة الله به، وأن الله لا يريد بعباده إلا خيراً .

والذين يعطون الأهمية البالغة للأسباب يوجهون حياتهم كلها إلى ادّخار متاع الدنيا وزخارفها ، وبالتالي تصبح «الحياة الدنيا» أعز شيءٍ عندهم، غير أن الشيء الجدير بالطلب والسعي الحثيث إنما هو الجنة ومغفرة الله ورضوانه، والجنة شيء لا يُنال إلا بعوض الحياة .

والسلوك الاجتماعي الذي طُولب الرسول بممارسته مع أصحابه المؤمنين، هو السلوك المطلوب من القائد المسلم ، فلابد للقائد المسلم أن يكون رقيق القلب ولين القول، ويجب ألا تكون هذه المعاملة الرفيقة اللينة محصورةً في نطاق الحياة اليومية العادية، بل تشمل أيضاً المواقف الصعبة، تلك التي يدور فيها الصراع الحاسم بين الإسلام والكفر والتي يتحول فيها النصر الباهر إلى هزيمة نكراء نتيجة للخروج على أوامر القائد.

ومن المستحيل أن تتألف أية جماعةٍ قويةٍ متماسكةٍ، مالم يكن قائدها متمتعاً بالسمو ورحابة الصدر وليونة الجانب على هذا المستوى ، إن الخطيئة مهما كانت فادحةً أو عظيمة الخطر، جديرة بالعفو، فيما لو كانت مجرد خطيئةٍ، ولم تكن بمشاغبةٍ متعمدةٍ، فينبغي للقائد أن يتعامل مع أتبّاعه ناسياً كل أخطائهم من هذا النوع ، وأن يكون غاية في النصح للناس والحرص عليهم ، حتى تبدأ تفيض من قلبه الدعوات الصالحة لهم،وأن يقدر الناس تقديراً بالغاً وأن يأخذ نفسه بالتشاور والبحث معهم في كل الأمور والقضايا .

وإذا كان المرء موقناً بأن كل ما يقع، إنما يقع بإذن الله عز وجل، فإن التدابير البشرية كلها،

ستصبح في نظره غير جديرةٍ بالاعتبار.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

أَن يَغُلَّ: يخون في الغنيمة.

بَآءَ بِسَخَطٍ: رجع متلبسا بغضب شديد.

وَيُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من أدناس الجاهلية.

على أن رسول الله ﷺ كان قد عفا عن أولئك الرماة الأربعين الذين خالفوا أمره، بمغادرتهم ثغر الجبل، قبل أن يأذن لهم بذلك غير أنهم لم يطمئنوا كل الاطمئنان إلى عفوه ذاك فقد كانوا يظنون أن ذلك لا يعدو أن يكون عفواً ظاهرياً مؤقتاً، وأن ثمة بقيةً من الحزازة في قلبه ولمّا تخمدْ جذوتها، وأنه سوف يحاول أن يتشفى منهم، إذا ما أُتيحت له الفرصة، فقيل: إنه ليس من شأن الرسول أن تنطوي نفسه على غِلٍ، بأن يُبطن في داخله خلاف ما يظهره.

ومن خلال هذا تتضح لنا تلك الصفات والملامح البارزة التي لابد من توافرها فيمن يتولى قيادة المسلمين، فالقائد المسلم ينبغي أن يكون قلبه من السلامة والنقاء بحيث لا يضمر شيئاً من مشاعر البغض والنفرة والحقد والحسد، إذنْ فينبغي للقائد المسلم أن يتّسع صدره للعفو والصفح، حتى عن أولئك الذين يرتكبون أفدح الأخطاء وأشدها خطورةً، وألا يُضمر في قلبه أية عاطفةٍ سلبيةٍ ضدهم؛ ولْيتعامل معهم اليوم كما لم يكن قد صدر منهم محظور بالأمس القريب.

ومما لابد منه كذلك أنه إذا أولت طائفة مسلمة ما ثقتها لأحد القادة واعتمدت عليه، فألقت إليه مقاليد أمورها كلها، فلا يجوز لهذا القائد أبداً أنْ يضحي بأموالها وأنفس أفرادها في سبيل تحقيق آماله وطموحاته الذاتية، إن الشخص الذي يكون قد نهض لإرشاد الناس إلى مرضاة الله وحثهم على اتباعها في حياتهم العملية، كيف يستحب لنفسه أن يحضر أمام الله ولم يتبع مرضاة الله في حياته ؟!

إن حياة الرسول ﷺ تمثل «القدوة والأنموذج» التي لابد من التأسي بها لكل القادة وزعماء الإصلاح إلى يوم القيامة، ومما يستلزم العمل الإصلاحي بالضرورة ألا يبدو المصلح «غريباً» من أية ناحية، عن الذين يتوخى القيام بالإصلاح بينهم؛ بل يجب أن يبدو، من حيث لغته، وأسلوب كلامه، وطراز معيشته، وما إلى ذلك «واحداً من أنفسهم»، كما يجب ألا يخلق بينه وبين مخاطبيه جواً داعياً إلى النفور، أوْ باعثاً على اتخاذ أحد الفريقيْن موقف المنافس للفريق الآخر.

وأول ما تهدف إليه مهمة الدعوة والإصلاح بين الناس: أن تُصقل عقولهم وتُنور بصائرهم، فيأخذوا في تلاوة الآيات الكامنة في نفوسهم، والمنبثة في أرجاء العالم الخارجي كله وتدبرها، وأن يرتفع مستواهم الفكري لكي يتمكنوا من إدراك البراهين الإلهية حق الإدراك.

والهدف الثاني هو: «التزكية»، والذي يتحقق بواسطة الصحبة، وما يدور في أثنائها من الأحاديث الشفهية.

والهدف الثالث هو: «تعليم الكتاب»، يعني بيان الأحكام والتوجيهات السماوية المتعلقة بشئون الحياة الدنيا وأساليب ممارستها، والتي يُطلق عليها اسم «الشريعة» أيضاً.

وأما الهدف الرابع والأخير فهو: «تعليم الحكمة»؛ وهو يعني كشف القناع عن أسرار الدين، وإبراز الحقائق والمعاني المحجوبة فيما بين السطور.

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ

ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

أَنَّىٰ هَـٰذَا: من أين لنا هذا الخذلان.

قُلْ فَٱدْرَءُوا: فادفعوا .

في الصراع القائم بين الحق والباطل، يكون الانتصار النهائي حليف الحق؛ لأن الله عز وجل يقف دائماً إلى الجانب الحق وأهله ، غير أن هذا العالم هو عالم الامتحان والابتلاء، حيث يتمتع الأشرار والمشاغبون بكامل الحرية للعمل والتصرف ، الأمر الذي ربما يُتيح لهم فرصةً للنيل من أتباع الحق وإصابتهم ببعض الأضرار والخسائر الوقتية؛ استغلالاً لموطنٍ من مواطن ضعفهم ،كالاختلاف والتنازع الداخلي على سبيل المثال .

غير أن مثل هذه الوقائع الفاجعة تتضمن ناحيةً إيجابيةً مفيدةً؛ فمن خلالها يتم تمحيص جماعة المسلمين أنفسهم، فما إن تثقل وطأة الظروف ويشتد ظلام الحوادث، حتى يتميز المنافقون الكاذبون - تلقائياً - عن الصادقين المخلصين في إسلامهم، الذين لا يزالون صامدين توكلاً على الله وثقةً بنصرته ، وبالإضافة إلى هذا كله فإن الخسارة الناتجة عن الخطيئة الصادرة اتفاقا عندما تحدو بأهل الإيمان إلى تجديد عهدهم بالتزام الصبر، والإنابة الدائمة إلى الله، والتوكل على الله، فإن رحمة الله تصبح أدنى إليهم وأقرب إليهم من ذي قبل.

إنه قد يقال عن الشهداء ((إنهم قد أهلكوا أنفسهم وأموالهم دون جدوى)) غير أن هذا الكلام إنْ دل على شيءٍ فإنما يدل على سفاهة قائله ، فإن الخسارة في سبيل الله هي الفوز الأكبر بالذات ؛ لأن الذين يضحون بكل ما يملكون في سبيل الله، هم أَوْلى الناس بكرامات الله يوم القيامة ، وأكثرهم استحقاقاً لنعمه وعناياته تعالى .

والسفهاء، إذْ يذكرون المقتولين في سبيل الله، يذكرونهم، وكأن الموت أليف المجاهدين في سبيل الله وحدهم دون غيرهم من الناس ، إن الموت سنة إلهية عامة لا تتخلف، وإنه لآتٍ إلى كل أحدٍ في موعده المضروب على حالٍ من الأحوال .

والذين يخوضون في مثل هذا الحديث، لا يصدرون أبداً في ذلك عن جدٍ ، فإن قلوبهم تكون منطويةً على اعترافٍ مكظومٍ بمدى تقصيرهم وتقاعسهم الإجرامي عن التضحية لإعلاء كلمة الحق، غير أنهم يحاولون الحفاظ على وقارهم وسمعتهم الظاهرية عن طريق الطعن بألسنتهم في شأن الذين قدّموا فعلاً التضحيات البالغة في سبيل الحق ، إنهم يقولون بأفواههم كلماتٍ تكون قلوبهم شاهدةً على أنها كلمات زائفةٌ؛ لا تستند إلى أية حقيقةٍ واقعةٍ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

أَصَابَهُمُ القَرْحُ: نالتهم الجراح يوم أحد .

كان المنافقون يصفون الشهادة في سبيل الله بأنها «موت ضائع»؛ لزعمهم أن هؤلاء المسلمين إنما يُلقون بأنفسهم إلى التهلكة من غير جدوى؛ مخدوعين بإغراءات رجل وتحريضاته - يعني النبي ﷺ - فقيل لهم : إن ما تحسبونه الموت هو في الحقيقة الحياة بعينها ، وبما أنكم لا تعرفون سوى منافع الدنيا وخسائرها العاجلة، فمن أجل ذلك يُخيل إليكم أن

التضحية بالنفس في سبيل الفوز الأخروي يعني إضاعةً للنفس ، ولكن الذين يقدمون الفاقدين حياتهم في سبيل الله يفوزون بحياةٍ أهنأ منكم، فهم يعيشون في الآخرة عيشةً أخفض وأرغد منكم في هذه الدنيا .

ومن حيل الشيطان وتدابيره أنه يغري بمن يجدهم من بني البشر أقرب إلى التأثر بوساوسه ونزغاته، يُغري بهم لكي يصرفوا الناس عن الدين، مصوّرين لهم ما سيواجهونه لقاء تقدمهم نحو الدين من عواقب وخيمةٍ ونتائج مخيفةٍ، ولكي يزلزلوا أقدام المؤمنين ويصرفوهم عن جبهة الدين ؛ بإلقاء الرعب والهلع في قلوبهم ، من خلال تضخيم قوة العدو والمبالغة في تصويرها ، غير أن مثل هذه المثبطات لا تضر أهل الإيمان شيئاً، بل تبعثهم على تجديد يَقِيْنهم وتقويته من أن الله لن يخذلهم في مواجهة الظروف الصعبة.

وحصلت معركة أحد على نحو ميليْن من المدينة، وبعد أن وضعت الحرب أوْزارها انصرف جيش الكفار عائداً تحت قيادة أبي سفيان، حتى عسكروا بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميالٍ من المدينة، وبعد ما استقر بهم المقام عادوا إلى التفكير فيما حدث، فأدركوا أنهم أخطأوا خطأً بالغاً إذْ رجعوا من أحد هكذا، دون أن يستغلوا هذه الفرصة السانحة للقضاء النهائي على المسلمين في المدينة .

وبينما يفكرون إذْ مر بهم عير من تجار عبد القيس، كانوا يريدون المدينة، فطلب إليهم أبو سفيان أنْ يحاولوا بعد وصولهم نشر الأراجيف والإشاعات بين المسلمين مما يثبطهم ويملأ نفوسهم خوفاً .

وما إن وصل رجال العير المدينة حتى قالوا : إنا قد رأينا أهل مكة وهم يُعدون جيشاً عظيماً جداً ، وقد صمموا على الهجوم ثانياً على المدينة بالذات، لكسر شوكة المسلمين واستئصال شأْفتهم ، غير أن ثقة المسلمين القوية بالله صارت كفيلةً بأن يبوء مكر الكفار بالإخفاق الذريع، وينقلب بالوبال عليهم أنفسهم ؛ إذْ من خلال إشاعات أولئك الدسَّاسين المأجورين تمكن المسلمون من الاطلاع على نوايا عدوهم الخبيثة ، وقبل أن تزحف جنود المشركين ثانيةً نحو المدينة، بادر المسلمون بتعبئة قواهم وتنظيم رجالهم على عجلٍ تحت أمر الرسول ﷺ ، وانطلقوا مسرعين صوب « حمراء الأسد »، وعندما بلغ المشركين أن جيوش

المسلمين قادمة نحوهم تستأنف القتال، فظنوا أنهم قد حصلوا على مددٍ عسكري فرجعوا أدراجهم إلى مكة خائفين مذعورين .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ: أن إمهالنا لهم مع كفرهم.

يَجْتَبِي: يصطفى ويختار.

قضية الحياة الحقيقية هي تلك التي مازالت خافية عن الأنظار، وليست التي يراها الناس ظاهرةً ماثلةً أمام أعينهم، الناس يهتمون بما يُنقذهم من جحيم الدنيا، ويبذلون قصارى جهدهم فيما يقودهم إلى نعيم الدنيا ، غير أن مقتضى العقل والكياسة أن يحرص الإنسان أشد الحرص على إنقاذ نفسه من جحيم الآخرة، ويسعى أعظم السعي للظفر بها هنالك من جنة النعيم الخالدة .

إن قضية الإنسان الكبرى والأصلية هي قضية الآخرة، والتي أخفاها الله تعالى عن عيون البشر لحكمة الامتحان، واتخذ لإخبار الناس بذلك أسلوباً حكيماً، وهو أن يختار بعضاً من عباده لحمل رسالة الغيب، يُطلعهم على حقائق ما وراء الموت، ثم يكلفهم بإعلام الآخرين بها .

الإيمان هو ألا يُعجب المرء بنفسه، فإن المُعجب بنفسه يرفع ذاته إلى مقام العظمة والكبرياء

بدلاً من الذات الإلهية، وألاَّ ينغمس المرء في لذائذ الدنيا، فإن الانغماس في لذائذ الدنيا يدل على أنه لا يُركّز اهتمامه على الآخرة ولا يُعطيها الأهمية البالغة ، وأن يكون بنجوةٍ من الكبر والغرور، والشح والبخل، والظلم والعدوان، بعيداً عن الحب لغير الله والاعتقاد فيه ، وبدلاً من ذلك كله يتخذ من العبودية لله، والتواضع والسماحة والجود، والتزام مبدأ العدل والنصفة على كل حالٍ، شعاراً عملياً له في الحياة، بذلك يبرهن على جديته وإخلاصه وانصرافه نحو الله والآخرة ، وعدم أخْذه نفسَه بذلك يوحي بأنه ليس بجادٍ ولا مخلصٍ في دعوى إيمانه .

إن التمييز النوعي الذي سيتم في الآخرة بين الطيب من الأرواح والخبيث منها، إنما يكون للحقيقة والجوهر، وليس للشكل الخارجي أو الطلاء الظاهري.

و «الإمهال» الذي أُعطى للأشرار والمنحرفين من الناس في الدنيا ، الغرض منه تمكين هؤلاء من إظهار ما في نفوسهم من شرٍ إلى أقصى حدٍ، غير أنهم مهما قاموا وقعدوا ومهما ركبوا الصعب والذلول، لن يفلحوا في إحراز الغلبة والانتصار على أتباع الحق وإلحاق الهزيمة بهم، إنما يستطيعون أن يستخدموا حريّتهم ضد أنفسهم وحدها، وليس ضد أحدٍ سواهم .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ

وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

سَيُطَوَّقُونَ: سيجعل طوقا في أعناقهم .

عَهِدَ إِلَيْنَا: أمرنا وأوصانا في التوراة .

بِقُرْبَانٍ: ما يتقرب به من البر إليه تعالى .

وَالزُّبُرِ: كتب المواعظ والزواجر .

زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ: بعد ونحي عنها .

الْغُرُورِ: الخداع أو الباطل الفاني .

على أن المرء يدخل في عداد المؤمنين بمجرد النطق بكلمةٍ واحدةٍ في ظاهر الأمر، غير أنه لا يكون عند الله مؤمناً إلا إذا ضحّى بماله ونفسه في سبيل الله، إذْ لا عبرة بإيمان أحدٍ عند الله بغير التضحية بالنفس والمال ، وإنما يضن المرء بماله ويكنزه ظناً منه أنه يحاول بذلك تأمين مستقبله الدنيوي والاحتفاظ به ، ولكن مستقبل الإنسان الحقيقي هو الذي سيواجهه في الآخرة ، وفي عالم الآخرة، لن يعود مثل هذا المال المكنوز المضنون به إلا بالوبال على صاحبه، فالمال الذي يبدو في هذه الدنيا وسيلةً للزينة والتفاخر والمباهاة، سوف يتحول بأمر الله إلى ثعبانٍ عظيمٍ في الآخرة .

والذين لا يعتنقون «دين التضحية والتكاليف» طالما يلجأون إلى ألوانٍ شتى من الأقاويل لكي يثبتوا أن موقفهم صحيح؛ فقد يقولون مثلاً : إن الله إنما خلق هذا المال لتغطية حاجاتنا نحن البشر، فلِمَ لا نبذله فيما نحتاج إليه ونتذرع به للحصول على أسباب الراحة ووسائل الترفيه في هذه الدنيا ؟! وقد تصل بهم قسوة قلوبهم وبلادة إحساسهم إلى إثارة أنواعٍ من الشبهات والشكوك حول شخصية الداعي إلى الحق بالذات؛ حتى يتمكنوا من البرهنة على أن ذلك الشخص الذي يفرض انبعاثه أن نقف إلى جانبه ونناصر رسالته، مُضحيّن بحياتنا وأموالنا، لا يمكن أبداً أن يكون داعياً صادقاً حقاً.

ومع أن هذه الأقاويل المموهة التي يخوض فيها أمثال هؤلاء الناس تبدو في ظاهرها

وكأنها دلائل وبراهين، فإنها ليست في الحقيقة سوى أساليب للفرار من تبعات الإيمان ومقتضياته ، ولذا فمهما عُرضت عليهم الدعوة مدعمةً بالأدلة القاطعة لن يُعوزهم بعض الألفاظ والعبارات الطنانة لرفضها والتنصل من قبولها ، إن هؤلاء أناس قد نسوا أن مصيرهم النهائي الموت ، وما إن تأتي مرحلة الموت حتى ينقلب الوضع رأساً على عقبٍ، فإن الموت لن يلبث أن يُلغي كل الاعتبارات والشعارات الزائفة، وعندئذٍ سيجد المرء نفسه في ذات الوضع الذي كان فيه حقيقةً، وليس في الوضع الذي كان يتظاهر به للناس.

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

لَتُبْلَوُنَّ: لتمتحنن بالمحن .

فَنَبَذُوهُ: طرحوه ولم يراعوه.

بِمَفَازَةٍ: بفوز ومنجاة .

بَاطِلاً: عبثا عاريا عن الحكمة .

في أثناء مسيرة الإيمان ، لابد أن يُصاب المرء بألوانٍ شتى من الأذى الحسي والمعنوي من ذويه ومن غيرهم، غير أن المؤمن مطالب دائماً بألا يقع فريسة رد الفعل، ويظل ماضياً نحو الأمام، متخذاً من كل وضعٍ يواجهه موقفاً إيجابياً.

إن المؤمن يمر بين الحين والحين بتجارب ومعاملاتٍ تبعثه على أن يلبّي مطالب ذاته،

متخطياً الحدود الإلهية كلها، ولكن الخشية الإلهية تكبحه، وتحكم حركته، وكذلك تتطلب مقتضيات الدين المختلفة أن يضحي المرء في سبيل الوفاء بها بنفسه وبكل ما يملكه من رخيصٍ وغالٍ .

وعندما تُمنى أية طائفةٍ أمينة على الكتاب السماوي بالانحطاط، فلا يحدث أن تتخلى عن التحدث باسم الله ورسوله، أوْ أنْ تعلن براءتها وانقطاع علاقتها بكتاب الله ، كلا، إن الدين ، بالنسبة إلى طائفةٍ كهذه، يتحول إلى تراثٍ قوميٍ تعتز به، ويمتزج بتقاليدها الشعبية كل الامتزاج ، وليس بإمكان أية طائفة، من الطوائف أن تتخلى أو تنفصل عن شيءٍ توثقت بينه وبينها أسباب علاقةٍ قوميةٍ وعنصريةٍ على هذا النحو غير أن علاقتها تكون مجرد علاقةٍ شكليةٍ أو رسميةٍ وليست علاقةً حقيقيةً في واقع الأمر .

أولئك أناس يمارسون نشاطهم الدنيوى بعنوان الدين، ويرغبون فى أن يُعدوا «متدينين» برغم بعدهم عن الدين، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وهم يعيشون حياةً خاليةً من كل اهتمامٍ بالنجاة الأخروية ، ثم هم يفتعلون - مع ذلك - عقائد خرافيةً ، يتوهمون أنهم بها سيكونون ناجين بكل تأكيد ، وهم يزعمون أنهم حَمَلة لواء الدين الإلهى، وينشطون لتحقيق غاياتهم الدنيوية، ويطلقون على تحركاتهم وصف الآخرة ، ويدورون فى فلك السياسة المزعومة، ويُضفون عليها صبغة السياسة الإلهية ، وهم ينهضون لإحراز مصالحهم القومية ويُعلنون أنهم نهضوا لتمثيل دور «خير الأمم» .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن
تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا
وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ: فاحفظنا من عذابها .

أَخْزَيْتَهُ: فضحته من عذابها .

مُنَادِياً: الرسول أو القرآن .

ذُنُوبَنَا: الكبائر .

وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا: أزل عنا صغائر ذنوبنا .

إن الكون بكل ما فيه إعلان «صامت»، وما إن يُزيل المرء كل الأغشية الاصطناعية المتراكمة على عينيْه وأذنيْه، حتى يستمع إلى صدى هذا الإعلان الصامت ويراه في كل أرجاء الوجود ، وعندئذٍ يلوح له أنه من المستحيل أن ينعدم وجود الإنسان ويتلاشى بكل آماله الجليلة وتمنياته الجميلة في مدةٍ تتراوح بين خمسين عاماً ومائة عامٍ؛ في هذا الكون الذي لا تنعدم ولا تتلاشى كواكبه ونجومه حتى ألوف المليارات من السنين ، وأنه لا يكون للإنسان أي مصيرٍ ينتهي إليه سوى سلسلة الهموم والأحزان في هذا العالم حيث يُوجد جمال الأشجار، وروعة الأزهار، وحيث يتوافر الماء والهواء والشمس وما إلى ذلك من موجوداتٍ ذات معنىً وهدفٍ معينٍ .

ثم إنه يرى مستحيلاً كذلك ألا ينال المرء أية ثمرةٍ أو جزاءٍ، على الرغم من سَيْره في اتجاه البر والصلاح في الحياة؛ في عالمٍ يزخر بإمكاناتٍ هائلةٍ لتحويل بذرةٍ صغيرةٍ تُلقى في الأرض إلى كونٍ بأكمله من الشجر الأخضر ، وألا يُشرق نور العدل والنصفة على مر القرون في عالمٍ يتجلى فيه نهار مشرق عقب ليلةٍ دامسةٍ كل يوم ، وألا تظهر أية قوةٍ تأخذ على يد هذا الإنسان الذي لا ينفك يمارس ظلماً في عالمٍ يضم بين جنباته زلازل مروعةٍ وكوارث مدمرةٍ.

إن الذين يعيشون في دنيا الحقائق ويسبرون أغوارها، ويفكرون بدقةٍ وعمقٍ بالغيْن، من المتعذر عليهم أن يفهموا أوْ يستيقنوا ما إذا كان هذا الكون المفعم بالهدف والمعنوية يمكن أن ينتهي إلى مصيرٍ خِلْوٍ من أي معنىً أو هدفٍ ؟! وبالتالي فهم يعرفون أن رسالة الداعي إلى

الحق إعلان بلسان النطق عن ذات الحقيقة التى يتم إعلانها وإذاعتها، بلغةٍ صامتةٍ، في أنحاء الكون كله ، والقضية الكبرى التي تشغل بالهم بعد ذلك هي ألا يكونوا من الخائبين والمحرومين، في حينٍ ينكشف فيه الحق، وتطلع فيه شمس العدالة والإنصاف ، فيندفعون نحو ربهم متضرعين إليه، ويقفون إلى جانب الداعي إلى الحق وينضوون تحت لوائه، هادمين بأيديهم كل حاجزٍ من حواجز المنفعة والمصلحة ، راجِيْن أن يبدى لهم ربهم منزلاً يسوده النور والضياء؛ ولا يدعهم يتيهون ويتخبطون في ظلماتٍ حالكة.

والعاقل الكيس من عاش في ذكر الله الدائم، والذي يدُرك المعنوية والهدفية العاملة وراء الخطة التكوينية للكون، وعلى العكس من ذلك فإن السفيه هو الذى يشغل قلبه وعقله بأمورٍ أخرى غير الله، والذى يمارس حياته فى هذه الدنيا وكأن ليس لديه إلمام بالخُطّة التكوينية لمالك الكون العظيم .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

لاَ يَغُرَّنَّكَ: لا يخدعنك عن الحقيقة.

تَقَلُّبُ: تصرف .

مَتَاعٌ قَلِيلٌ: بُلْغةٌ فانية ونعمة زائلة .

وَبِئْسَ الْمِهَادُ: بئس الفراش ، والمضجع جهنم .

نُزُلاً: ضيافة وتكرمة وجزاء .

وَصَابِرُوا: غالبوا الأعداء في الصبر.

وَرَابِطُوا: أقيموا الحدود متأهبين للجهاد.

الحياة المنضبطة المسئولة التي يعيشها أهل الإيمان تحرمهم من بعض شهوات النفس وحرياتها، وفي إعلانهم للحق يرى الكثيرون من الناس إلغاء أو نفياً لوجودهم؛ الأمر الذي يجعلهم يناصبونهم العداء، وربما يتفاقم الوضع ويتأزم لدرجة أنهم يُخرجون من ديارهم وأوطانهم، ويُضطرون إلى النهوض لمقاومة عدوان المعارضين وتعسفهم ، ولا يسعهم بعدئذٍ إلا أن يختاروا دين الله مضحين بالنفس والنفيس، ومما يجب على أهل الإيمان ألا ينسوا مصالح الآخرة من أجل مصالح الدنيا ، وأن يصبروا على مكاره الحياة وشدائدها، وأن يدفنوا المشاعر السلبية المنبعثة في نفوسهم، ولا يتخذوا أية خطوةٍ أو إجراءٍ علميٍ بدافع رد الفعل ، ثم إنهم مطالَبون بالاستقامة والثبات على مقاومة الأعداء الخارجيّين، فإن هذا الثبات والاستقامة هو الشيء الذي يجلب إليهم نصرة الله عز وجل، كما يجب - مع ذلك - أن يكون أهل الإيمان جميعاً ومتَّحدى الكلمة، مرتبطين بعضهم ببعض لأجل الكفاح الدينى، فيقاوموا كل القوى المعادية صفاً كأنهم بنيان مرصوص .